
١٦
مركز المحكمات
المحكمات
حوارات وتطبيقات
د. عابد بن محمد السفياني
مركز الفكر المعاصر



حوارات وتطبيقات

تأليــف

د.عابد بن محمد السفياني

عميد كلية الشريعة وأصول الدين

جامعة نجران

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

ح دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السفياني ، عابد محمد

المحكمات تطبيقات وحوارات . / عابد محمد السفياني . - الرياض ، ١٤٣٤هـ

١٣٦ ص ؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك : ٦-٦-٩٠٣٣٠-٦٠٣-٩٧٨

١- المقاصد الشرعية ٢- أصول الفقه ٣- الوحدة الإسلامية أ.العنوان

ديوي ٢٥١,٦ ١٤٣٤/٢٨٧٤



الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ



ص . ب ٢٤١٤٧٠ الرمز البريدي ١١٣٢٢ الرياض المملكة العربية السعودية

هاتف ٠٠٩٦٦١٤٥٣٩٨٨٣ - فاكس ٠٠٩٦٦١٤٥٣٢١٥٧

markazfekr@hotmail.com

الموقع الإلكتروني www.al-fikr.com

هذا الكتاب

يعيش المسلمون اليوم في هذا العالم مشاكل كثيرة بسبب ما انتشر في هذا العالم من كثرة الاختلاف في مجال القيم والأفكار والعقائد والأحكام، وتفرق الناس علىٰ هذا الأساس متأثيرين بالفرق قديماً وأراء التنويريين والعلمانيين والعقلانيين حديثاً، وهؤلاء وهؤلاء تأثروا بأفكار الآخر في الغرب واستنكروا الثوابت في مجال العقائد والأحكام وذهبوا يتبعون المذاهب الفكرية " العلمانية " والشيوعية والوجودية ويطبقونها في العالم الإسلامي حتىٰ ما تركوا مذهباً إلا وجربوه، وهكذا نشأ الصدام والاختلاف حول أساسيات الإسلام ومحكماته وثوابته، وتأثر بذلك خلق كثير من المسلمين، وأصبحت المسلّمات الأساسية والمحكمات محل جدل وخلاف فيما بينهم، وهذا مشاهد بصورة جلية في عصر الثورات، وانتشر الغلو في الفكر، وانبنىٰ علىٰ هذا الاختلاف والتفرق مشاكل لا تحصىٰ، حيث انتشرت الأهواء والجدل والخلاف المذموم وكثر التنازع وصار بأسهم بينهم شديد وهكذا الكتاب يعالج هذه المشكلة ويحدد الأصول والمحكمات والأسس والثوابت التي يستطيع المسلمون الاجتماع عليها، والتي تحول بينهم وبين المتشابهات التي وقع فيها كثير من الناس وصدتهم عن شريعة الله، ويجيب هذا الكتاب علىٰ هذا السؤال وهو هل تكفينا تلك الأسس والأركان والمبادئ المتفق عليها في معالجة هذه المشكلة لتكوين الأمة الواحدة المسلمة



التي تتبع الشـريعة الواحدة وتلتزم بالعقيدة الصافية ، وتقدم الإسلام للعالـم عـن طريق هذه الأصـول المتفـق عليها في رسـالات الأنبياء عليهم السـلام ، والتي جددها الإسـلام الرسالة الإسـلامية الخاتمة رسـالة نبينا محمد عليه الصلاة والسـلام ، أم أن الاختلاف في الآراء وغلبة الأهواء واتباع المتشابهات سيكون حجر عثرة في هذا الطريق .

وهـذا الكتاب الـذي عنوانه " المُحكمَات " يقـدم الجواب ويقرر أن " المحكمات" وهي الأسس والثوابت في الشريعة الإسلامية كافية لبنـاء الأمة واجتماعها وتصلح قاعدة للإصـلاح في العالم أجمع بين المسلمين بعضهم بعضا وهي الطريقة الأمثل للتعريف بالإسلام .

ولقـد تضمن هذا البحـث : التعريف بالمحكمات وأصلها الشـرعي والتطبيقات الشـرعية لهـا ، وبيان المفهوم ، وتحريـر مذاهب أهل العلم باختـلاف تخصصاتهم ، واسـتقراء التاريخ وعرض ما ورد في رسـالات الأنبيـاء المؤكدة لهذا المنهج ، وبيان ما دعا إليه رسـول الإسـلام محمد بن عبد الله ﷺ وجدده وحاور البشرية حوله ، وكذلك اخترنا بعض حوارات صحابتـه رضـي الله عنه مـع الأمم الأخـرىٰ ، وأخيراً ضمنّا هـذا البحث دراسـة عـن أثر المحكمـات في تحقيق وحـدة الأمـة ، وفي تحقيق حفظ المجتمع وكل ذلك بأسـلوب موجز يتناسـب مع عمـوم القراء ، وأكثرنا من ضـرب الأمثلة والتطبيقـات والقصص والحوارات التاريخية سـواء من قصص الأنبياء عليهم السـلام أو ما وقع في بداية الدعوة الإسـلامية ، لنكشف عن أثر المحكمات في التعليم والتعريف بالإسلام .

المحتويات





١ المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحابته ومن والاه، أما بعد :

فإن الله سبحانه قد شرع هذه الشريعة المباركة لتحقيق مصالح عباده، وهو العليم الحكيم، قال سبحانه ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[المائدة: ٦]. وقد جعل الله لكل عبادة مقصداً من المقاصد دلت عليه شريعة الإسلام، وأعلاها تحقيق التوحيد والعبادة له وحده والاجتماع علىٰ الحق والقيام به حكماً وتحاكماً ونصرة، حيث جعل الاعتصام بالشريعة الأساس المتين لتحقيق ذلك فقال تعالىٰ ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: من الآية١٠٣] وجعل ((المُحكمات)) ((البينات)) هي أصل الاجتماع والاتحاد، ونهىٰ عن الاختلاف فيها والتفرق عنها كما في قوله تعالىٰ بعد الآية السابقة ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران:١٠٥] والبينات هي المحكمات من الآيات التي دلت علىٰ وجوب عبادة الله وحده والاعتصام بشريعته، وهذا السياق في



سـورة آل عمران مناسـب لما جـاء في مطلعها مـن التنويه بأهمية ((المحكمـات)) في قوله تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾[آل عمـران: مـن الآيـة٧] وهـذا التنبيـه يدل علىٰ أنهـا من أعظم وسـائل النجاة والاجتماع علىٰ الحق، وأنها سـبب عظيم في إبعاد الأمة عن المتشـابهات التـي تطرأ علىٰ الأمـة في كل زمان ومكان وتؤثّر علـىٰ اجتماعها وقوتها، وتبعدها عـن الاعتصام و الوحدة ومـن مقاصد الشـريعة قولـه تعالىٰ في الصـلاة : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبـوت : ٤٥]، وقـال في شـريعة القصـاص: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩].

وقـد بيـن الله سـبحانه أن القرآن بينـات من الهـدىٰ والفرقان، وحجـةٌ علىٰ الخلق ومحققـة لمقاصدهم في جميـع ما يحتاجون إليـه، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ ﴾[البقرة: ٩٩] وقال عز من قائـل : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ [البقـرة : ١٨٥]. وقـال سـبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[الجمعة : ٢].

والكتاب هـو القرآن وهو الوحي المتلوّ، والحكمة هي السـنة وهي بيانه وذلك مجموع الشرع الإسلامي، ولذلك أمر الله عباده

بالرد إلىٰ الكتاب والسنة حين التنازع(١).

وكلٌ من عند الله، قال سبحانه موجها رسوله ﷺ وهو يتلو القرآن: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة آية ٢] والسنة المطهرة هي بيانه (٢).

وحفظ الله هذه الشـريعة المباركة فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]. والحفـظ شـامل للوحيين القرآن وبيانه الذي هو السنة (٣).

وأحكـم آياتـه ومنعهـا مـن الخلـل والفسـاد، وحفظهـا متقنـةً بينـةً كما قال سبحانه : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].

وكمـا حفظ الله القرآن حفـظ بيانه الذي هو السـنة فكل واحد منها يعضد بعضه بعضـاً ويشد بعضه بعضـاً.

وموضوعنا هذا – الذي اخترنا أن يكون عنوانه « المحكمات: حوارات وتطبيقات » يُمَكِّننا من دراسة مقاصد الشريعة، والتنويه

(١) درء تعارض العقل والنقل (١ / ١٤٦)، وقد يقول قائل إن هناك ما يتردد فيه المجتهد كمعرفة اللفظ المشترك والمجمل فكيف يتضح بيانه، قلت : يتضح بتفسيره عن طريق النصوص الأخرىٰ، فالناظر إذا رَدَّ إلىٰ النصوص الأخرىٰ بَينتْ له المقصود من اللفظ المشترك وكشفت له الإجمال، فمجموع الشريعة بينات، وكذا قولنا إن الشريعة محكمة والكتاب محكم كما قال سبحانه﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١]، وإن كان فيه متشابه، ذلك أنه يمكن رد المتشابهات القلائل إلىٰ المحكمات التي هي الأصل والمرجع وسيأتي بيان ذلك بمشيئة الله.

(٢) انظر مقدمة شرح السنة للبغوي (١).

(٣) الموافقات .

بالمُحْكمَات والتحذير من ضدها، والطريق الذي يحقق ذلك هو: التعريف «بالمُحكمَات» عند علماء الشريعة وبيان أهميتها وأثر ذلك في وحدة الأمة وحفظ المجتمع.

وقد اختصرت الكتاب الأساس[1] رغبة في تقريبه لعموم القراء. وليكون في متناول طالبيه، وزدت فيه مباحث مهمة منها: حاجة البشرية للمحكمات، وبسطت الكلام في النماذج، وكشفت عن بعض حوارات الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم حول المحكمات، واقتصرت علىٰ نماذج من القصص القرآني، وبينت أثر ذلك علىٰ منهج الإصلاح والدعوة والتعليم وإقامة الحجة، مؤكداً علىٰ خصائص المُحكمَات، ولم أنس أن أسرد بعض القصص حول حوارات الثقافات سواء ما كان منها في بلاط الملوك وملتقىٰ الحضارات، أم ما كان منها في السيرة النبوية مع الوفود، وكل ذلك لنؤكد علىٰ أهمية المُحكمَات في الإصلاح والدعوة والتعليم والتربية، وأن منهج الدعوة في العهد النبوي. وأيضاً منهج الأنبياء - عليهم السلام - تميّز بالعناية بالمُحكمَات والتأسيس عليها، ولهذا نوه القرآن بها، واشتمل عليها القصص القرآني[2]، وإنما زدت هذه المباحث لتمكن الدعاة وعامة المسلمين من إدراك أهمية هذا الموضوع، لأنه بكثرة النماذج

(١) وهو كتاب المُحكمَات في الشريعة الإسلامية وأثرها في وحدة الأمة.

(٢) لعله يتيسر إن شاء الله الحديث عن المحكمات في القصص القرآني بتوسع في غير هذا الكتاب.



والأمثلة يتضح المقصود، وكذلك أكدنا علىٰ بيان الاستعمال القرآني للمحكمات في مجالات عدة، وذكرنا بعض ما ورد في السيرة والتاريخ لنكشف عن عناية المصلحين من الأنبياء عليهم السلام، وأتباعهم من أهل العلم والمجددين ليكون ذلك جواباً عن سؤال : لماذا الاهتمام بالمُحكمَات ؟

وسنورد أسباباً أخرى تبين أهمية دراسة هذا الموضوع منها.

١- أن «المحكمات» في الشريعة جاءت بحفظ الضروريات الخمس وأولها تصحيح الاعتقاد في الله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره وتعليم أركان الإسلام وهذا هو أول ضروري وهو حفظ [الدين، ثم النفس، والعرض، والعقل، والمال] وبحفظها يُحفظ المجتمع، ومن المناسب بيان منزلة المحكمات عند علماء الشريعة، وكيف تؤدي إلىٰ حفظ هذه الضروريات.

٢- أن حفظ المجتمع مسئولية أفراده، وهؤلاء الأفراد لا بد أن يكون لهم علم صحيح بتلك المحكمات حتىٰ يشاركوا في حفظ الضروريات ويتحملوا مسئوليتهم علىٰ علم وبصيرة، ويحذروا من المتشابهات ومخالفة المحكمات، ويجب علىٰ كل مسلم تعلم أركان الإسلام والإيمان وما يحتاجه من الأحكام.

٣- أننا أمام تشتت فكري وعقدي يعيشه العالم اليوم بسبب تعدد الثقافات البشرية واختلافها وقصورها، مما أدىٰ إلىٰ ظهور الإباحية والفوضوية في كثير من المجتمعات حيث أُطلقت

الحريات عن ضوابطها الشرعية، وانتشرت «الجريمة» في العالم وعجزت الثقافات والتشريعات البشرية عن ردِّ الإنسان عن الشبهات والشهوات، فكان من المناسب التعريف «بالمحكمات» التي وضعها الشارع أصلاً وعاصماً من ذلك كله، مع مراعاة اختلاف العصور والمجتمعات، والتعريف بخصائصها وبيان كيفية الاستفادة منها في مجال التعليم والدعوة.

٤- أنه مع التسليم بأن «الاختلاف السائغ في الفقه الإسلامي» لم ينقطع في أي عصر من العصور، فإن الواجب تقديم الإسلام في التطبيق والدعوة من خلال المحكمات والأساسيات لا من خلال الاجتهادات والخلافات السائغة أو غير السائغة.

٥- حاجة المسلمين في جميع بقاع الأرض إلىٰ الوحدة، ومعرفة القاعدة الأساس التي تقوم عليها، وقد كثر اختلاف الطوائف في فهم الإسلام، وفي موقفهم علىٰ سبيل المثال من تطبيق الشريعة[(١)] وإذا تأملنا في عصرنا الحاضر، وعصور مضت علمنا أن الأهواء التي أحدثها المشركون، وأحدثتها الفرق الضالة كانت سبباً في تفرق الأمة عن دينها وشرائعها، ومن أمثلة الأهواء التي تفرق ولا تجمع أفكار الخوارج والمعتزلة و الباطنية... ومن أمثلة الغزو الفكري المعاصر الشيوعية والعلمانية والوجودية والحداثة الغربية المعارضة للإسلام، وهذه الأمثلة ليست للحصر، إنما

(١) جرت محاولات كثيرة لتوحيد التشريع ومنه النظام الجنائي ولكنها لم تحقق الأهداف المرجوة منها انظر [٢٠] من أصول قانون العقوبات في الدول العربية.

لبيان خطر الخروج عن المحكمات واتباع المتشابهات، ومن الأخطار التي ترتبت علىٰ ذلك انتشار الفتن بين المسلمين، وظهور فتنة التشريع والتبديل عند الفرق قديما وحديثا، وفتنة الدساتير المخالفة للشريعة عند المذاهب العلمانية، وكلُّ ذلك كان له الأثر السيئ في حياة الأمة الإسلامية المعاصرة، ومن المعلوم أنّ هذه المشكلة ما زالت قائمة حتىٰ هذه اللحظة، ولا يزال الجدل حول الدستور ومرجعية الشريعة للحكم والتحاكم، ولا يزال أقوام يولون وجوههم شطر الغرب يعارضون أن تكون الشريعة المصدر الوحيد للدستور، وهؤلاء بلا ريب هم المعارضون للثوابت والمحكمات، فلا بد من بيان محكمات الشريعة والمدافعة عنها أمام هذه الانحرافات.

٦- وجوب الرجوع إلىٰ الشريعة الإسلامية عند التنازع قال عز من قائل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[النساء: ٥٩]. وهذا محل إجماع بين المسلمين، ولا يتحقق ذلك إلاّ بترك المتشابهات والتزام المحكمات ومنها الإيمان الجازم بحاكمية الشريعة الإسلامية علىٰ الدساتير والبشر والأوضاع. ولهذا أوجب الله علىٰ جميع البشر التسليم المطلق لهذه الشريعة المباركة، مع اعتقاد أن كل حكم فيها هو العدل والحكمة والخير والرحمة، وأنه يجب الاحتكام إليها في جميع شئون الحياة والإذعان

لها بحيث لا يقدم عليها منهج آخر، لأن كل ما جاءت به حجة علينا لا نعارضه بهوىٰ، ولا نغيره بشبهة، ولا نقدم عليه شيئاً من أحكام البشر.

٧- ظهرت حاجة المسلمين اليوم بصورة جلية إلىٰ التعاون للوقوف في وجه الفتن المعاصرة التي تتزعمها المذاهب الفكرية الأوربية المعاصرة، وتروج لها أفكار الفرق الضالة، وهذا التعاون يجب أن يكون علىٰ أساس مشترك متين ألا وهو المحكمات وسنكشف في هذا الكتاب كيف تحقق هذه المحكمات الوحدة في جميع المجالات وتبعد المسلمين والدعاة عن المتشابهات والاختلاف والفرقة، وهذا مقصد عظيم من مقاصد الشريعة.

وهذا الكتاب عنوانه [تقريب المُحكمَات] وهو دعوة للمسلمين عامتهم وخاصتهم للاجتماع علىٰ المحكمات ونصرتها والدفاع عنها وتبليغها للناس كافة ومحاورة غير المسلمين حولها بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو منهج القرآن الكريم، وأسأل الله أن يجعل لهذا الكتاب القبول عنده، ويجعل له أنصاراً في الأرض من أهل العلم يعلمونه للناس، وأن يسددنا جميعاً ويهدينا إلىٰ سواء السبيل، وسلام علىٰ المرسلين والحمدلله رب العالمين.

المؤلف

مكة المكرمة

٨ ذي الحجة ١٤٣٣هـ

٢ تعريف المحكمات

تعريف المحكم في اللغة:

جاء في لسان العرب: «أحكمت الشيء فاستحكم صار مُحكما واحتكم الأمرُ واستحكم وثُق».

وحَكَمَ الشيءَ وأحْكَمَهُ، كلاهما: منعه من الفساد،... ومنه حَكَمة الدابة، سُميت بهذا المعنىٰ لأنها تردُّ الدابة.

وقال: والمُحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، يقال أُحْكِمَ فهو مُحْكَم»[١]

وجاء في الصحاح للجوهري: «أحكمتُ الشيء فاستحكم أي صار محكماً»[٢]

وجاء في القاموس المحيط: «بناء محكم أي ثابت يبعُد انهدامه.

ونقول: أحكمتُ الشيء أُحكمه إحكاماً فهو مُحْكم إذا أتقنته فكان في غاية ما ينبغي من الحِكْمة.

وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد»[٣] .

---

(١) لسان العرب دار إحياء التراث العربي مادة حكم (٣/ ٧٧٠ - ٧٧٢)، وانظر تهذيب اللغة للأزهري مادة حكم (٤ / ١١١).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مادة حكم (٥/ ١٩٠٢).

(٣) القاموس المحيط مادة حكم (١٤١٥).

تعريفه في الاصطلاح عند الأصوليين :

- قال الجصاص: « المحكم ما لا يحمل إلا وجهاً واحداً »[1]

- جاء في كتب (الحنفية) هو اللفظ الذي دل علىٰ معناه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً حتىٰ في حياة النبي ﷺ ولا بعد وفاته بالأولىٰ »[2].

- وفي كتب (المالكية) قال الشاطبي : في شرح قول الله تعالىٰ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] فجعل المحكم هو واضح المعنىٰ الذي لا إشكال فيه ولا اشتباه هو الأم والأصل المرجوع إليه»[3]. كما أشار الشاطبي إلىٰ أن الأم هو الأكثر ومعظم الكتاب ولهذا جاء التعبير القرآني للمتشابهات بأنها « أخر » علىٰ سبيل التقليل[4].

- وفي كتب (الشافعية) أن ما لم يحتج إلىٰ بيان فهو المحكم، وهو قول إمام الحرمين في البرهان قال :« والمختار عندنا أن المحكم كل ما علم معناه وأدرك فحواه والمتشابه هو المجمل»[5].

---

(١) أصول الجصاص (١/ ٣٧٣)، وانظر أصول السرخسي (١/ ١٦٥)، وكشف الأسرار (١/ ٥١).
(٢) تفسير النصوص (١/ ١٧١)
(٣) الموافقات (٤/ ١٧٦)، وانظر المختصر لابن رجب (١/ ٤٧٤).
(٤) هذا المعنىٰ جاء في النهاية، والصحاح ونبه عليه إمام السنة الإمام البغوي كما سيأتي معنا.
(٥) البرهان للجويني (١/ ٢٨٤) شرح اللمع تحقيق د.العميري (٢/ ١٦٨).

- أما (الحنابلة) فقد ذكر أبو يعلىٰ : أن آية آل عمران جعلت المحكم هو الأم. فقال : « وأم الشيء هو الأصل الذي لم يتقدمه غيره، فاقتضىٰ ذلك أن المحكم : ما كان أصلاً بنفسه مستغنيًا عن غيره لا يحتاج إلىٰ بيان لا من لفظ قرينه ولا غيره »[١].

وقال: « أمّا المُحْكم : فقد يعبر به عمّا لم ينسخ، فيقال : هذا محكم وهذا منسوخ، وحَدُّ ذلك : ما بقي حكمه أو تأبد حُكْمُه.

وقد يعبر به عن المفسَّر، كما قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾ [آل عمران: ٧] وأراد بالمحكمات المفسّرةُ المستغنيةُ في معرفة معانيها عما يفسرها، وحَدُّ ذلك ما ذكرته، وهو ما يُنبئ عن المراد نفسه أو يُعقلُ معناه من لفظه»[٢] .

وقال : « ظاهر كلام أحمد رحمه الله : أن « المحكم » ما استقل بنفسه ولم يحتج إلىٰ بيان والمتشابه ما احتاج إلىٰ بيان واستدل علىٰ ذلك بقول الإمام احمد: «بيان ما ضلت فيه الزنادقة في القرآن ثم ذكر آيات تحتاج إلىٰ بيان »[٣].

(١) العدة (٢ / ٦٨٧ - ٦٨٨).
(٢) العدة (٢ / ٦٨٥)، وانظر مجموع الفتاوىٰ (١٣ / ٢٧٥).
(٣) العدة في أصول الفقه (٢ / ٦٨٤)، وذكر القاضي أن كلام الإمام أحمد في كتاب السنة، وقال المباركي في تحقيقه لكتاب العدة : إن كلام الإمام ورد في رسالة «الرد علىٰ الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه علىٰ غير تأويله «ص ٧ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٩٣ هـ وانظر المسودة في أصول الفقه (١٤٤)، والبحر المحيط (١ / ٤٥١).



وقال في رواية ابن إبراهيم[1]: « المحكم » الذي ليس فيه اختلاف[2].

قال القاضي : ومعناه : أنه مستقل بنفسه. ثم قال : وهو قول عامة الفقهاء.

ومن أقوال الأصوليين في تفسير المحكم يظهر لنا أنهم يلاحظون في تعريفات المحكم الأوصاف التالية :

١. الحفظ وعدم التغير والتبديل.
٢. الوضوح والبيان.
٣. كونه أصلاً ومرجعاً.

وعلىٰ هذا يمكننا أن نعرّف المحكم بأنه :

« ما كان أصلاً بنفسه مستغنياً عن غيره لا يحتاج إلىٰ بيان ».

وسنذكر نماذج للمحكمات علىٰ سبيل البيان لا الحصر تكشف للقارئ عن مقصود هذا الكتاب، وتبين معنىٰ المحكمات عن طريق المثال، وهو أسلوب في التعريفات يسهل إدراك المعنىٰ ويحدده، ويمكن للقارئ التأمل فيما سنذكره من أمثلة ويستطيع

(١) قال المباركي : يطلق علىٰ أكثر من واحد من أصحاب الإمام فلا يمكن تعينه، المرجع: العدة في أصول الفقه (٢ / ٦٨٥).
(٢) العدة (٢ / ٦٨٥)، وانظر مجموع الفتاوىٰ (١٣ / ٢٧٥)، الاتقان للسيوطي (٤١٣)، البرهان في علوم القران (٦٨).

أن يطبق عليها أوصاف المحكمات، وهي الوضوح والبيان، وكونها أصلاً ومرجعاً، وكونها ثابتة محفوظة، وهي أساس الكتاب ومعظمه، وهذا عرض لهذه الأمثلة وهي :

- وجوب عبادة الله وحده، وتوحيده وتفرّده بالربوبية والأسماء والصفات والعبادة.
- تحريم الشرك، وهو معنىٰ الركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله».
- أركان الإيمان ومنها الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب، وبالملائكة، وبالرسل جمعياً والقدر خيره وشره. ومن أركان الإسلام، وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج. وهذا هو الدين الحق الذي سماه الله الإسلام ولهذا اجتمعت علىٰ ما ذكرنا من هذه المحكمات الرسالات السماوية فالدين الذي جاءت به من عند الله واحد وله اسم واحد وهو الإسلام وأتباعه هم المسلمون ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾، ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ ، ومن المحكمات التي اجتمعت عليها شرائع الأنبياء تحريم الظلم والإثم والزنىٰ والخمر والربا وسائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ومن المحكمات التي يجب بيانها في

هـذا العصر بيان عقيدة المسـلمين في ختـم النبوة وانقطاع الوحي بمـوت النبي محمد ﷺ وصحة الشـريعة وكمالها ووجـوب الاتباع له عليه الصلاة والسـلام، والأنبياء أخوة لعلات ومحمد عليه السـلام رسـول للنـاس كافة ومجدد للرسالات السماوية ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾.

- الأمر بالأخـلاق الفاضلة والعدل والإحسـان، وإيتاء ذي القربىٰ.
- حفظ الدين والنفس، والمال، والعرض، والعقل.

هـذه أمثلة للمحكمات وليـس للحصر وسـيأتي عرض الأدلة التفصيليـة عليها، كما جـاء في القرآن الكريم، الـذي تضمن بيانـاً شافيـاً مكرراً في مواضع كثيرة عن الأسس المشتركة بين رسالات الأنبيـاء عليهـم السـلام، وقـد سـماها ابـن كثيـر - رحمـه الله- «المشترك عند الأنبياء» [1].

ومن المناسب أن تقتبس بعض هذه المواضع من القرآن، لنكشف للقارئ عن اهتمام القرآن الكريم ببيان هذا المنهج والعناية به، كما جاء في قصص الأنبياء - عليهم السلام - في آيات كثيرة وسور مستقلة،

(١) وهي كذلك تسمية شيخ الإسلام، انظر تفسير ابن كثير(٧/ ١٧٨)، الفتاوىٰ (١٩/ ١٠٦-١٢٨) بعنوان: فصل في توحد الملة وتعدد الشرائع.

حيث حفظ القرآن الكريم هذه العقائد والأصول، وأكد على أنها هدى الأنبياء قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[الشورى:١٣]. وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: ((أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخره، والأنبياء إخوة لعلات[١]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد))[٢]. يجب الإيمان بهم جميعاً والكفر بواحد منهم كفر بهم جميعاً، ودينهم الإسلام والاتباع للرسالة الخاتمة التي جاء بها رسولنا محمد - عليه الصلاة والسلام - ومن لم يتعبه ويؤمن بهم جميعاً فليس بمؤمن، ومن بركة هذه الرسالة المحمدية أنها أكدت على [الدين المشترك] عند الأنبياء عليهم السلام كما سماه شيخ الإسلام - رحمه الله - وسماه القرآن كما بينا في هذا الكتاب «المحكمات»، فالدين المشترك بينهم هو الإسلام، واتباعهم إنما هو للوحي المنزل من عند الله، فهو المصدر الوحيد الذي تعرف منه الأحكام والشرائع وليس لهم مصدر سواه.

وقد اجتمعت الرسالات السماوية على المحافظة على

(١) أي أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح في أحاديث الأنبياء (٦/ ٤٧٨).

الضروريات الخمس وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال[1]، ويدل على ذلك أن الدين المشترك عند الأنبياء عليهم السلام يشمل الأمور التالية:

١- الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله وما عناه الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقوله سبحانة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، ويبنى على هذا تحديد مرجعية الشريعة الإسلامية مرجعاً وحيداً للتشريع والدستور.

٢- الإيمان باليوم الآخر والاستعداد للجزاء والحساب قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤]

وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٦٢].

وقال جل ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

(١) الموافقات (٢/ ١٩).



ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت :٣٦].

وقال سبحانه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ..... ﴾ الآية [المجادلة:٢٢]

٣- الأمر بإقامة أركان الإسلام بعد الشهادة بالتوحيد والرسالة، مثل الصلاة والصيام.

قال لقمان عليه السلام لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

[لقمان:١٧].

وقال الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم:٤٠] وقال على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم:٣١]

وقال سبحانه مبيناً مهمة المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

[الحج:٤١]

وكذلك الحكم بالنسبة للصيام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]



٤- حفظ مقاصد الشـريعة التـي تتحقق بها مصالحهم الدنيوية والأخرويـة، والنهـي عن الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وقتل النفس، والزنىٰ والربا وسائر أنواع الظلم والاعتداء.

قـال الله تعالـىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

ومما يدل علىٰ حفظ النفس قوله سبحانه: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة:١٧٩]

وقوله عن شـريعة من قبلنـا: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة:٤٥]

وكذلك في حفظ المال وتحريم الربا قال الله سبحانه: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾[البقرة:٢٧٥].

وقال عن شـريعة من قبلنـا: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء:١٦٠- ١٦١]

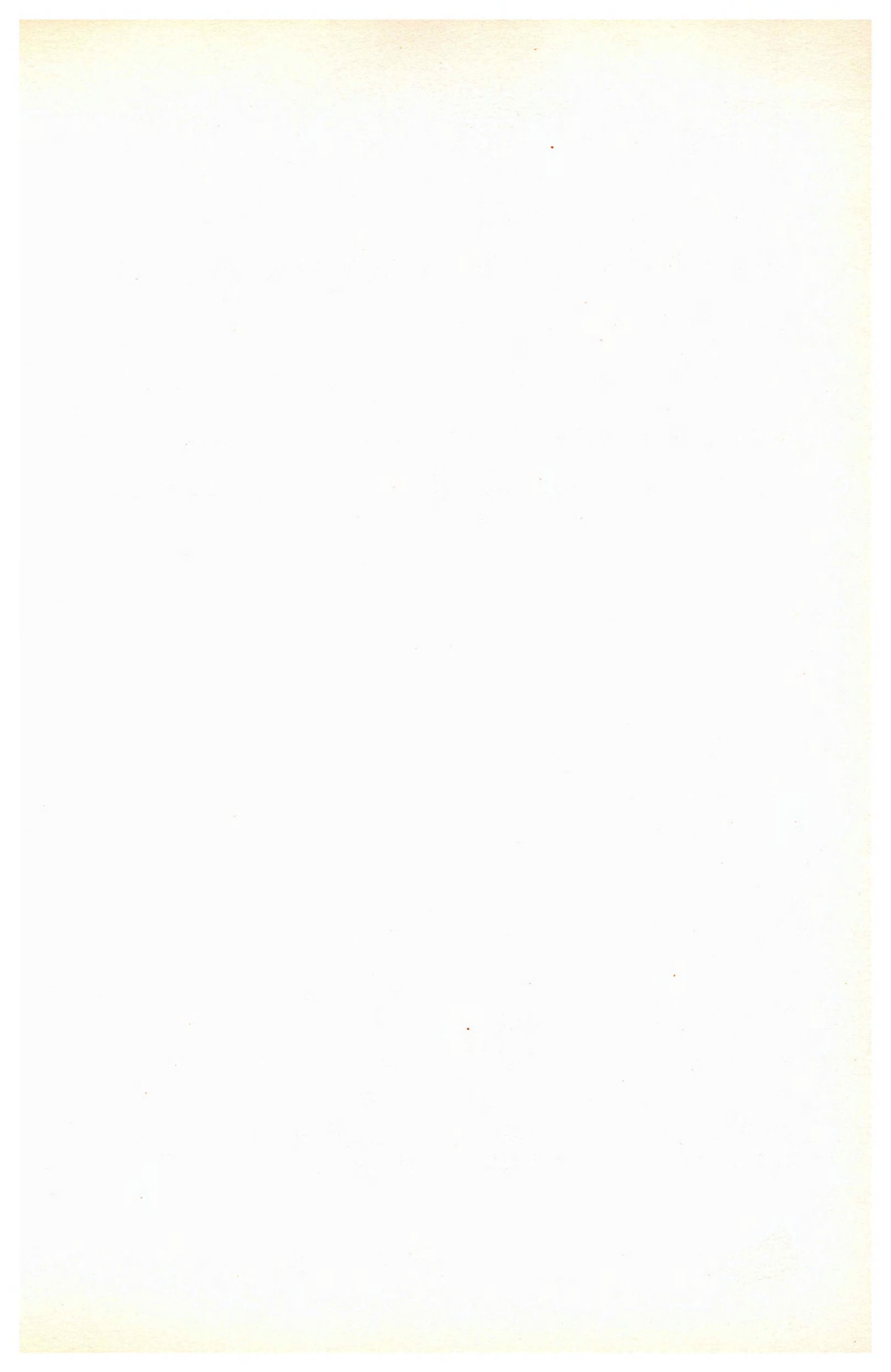




وفي هـذا دلالـة واضحة علىٰ أن كافة شـرائع الأنبيـاء عليهم السـلام تأمر بحفظ تلك الضروريـات، وهي قاعدة عظيمة لحفظ حقوق الأفراد والمجتمعات العامة والخاصة، وقد جاء كل رسول داعيًا للتوحيد ناهيًا عن الشرك محافظًا علىٰ مكارم الأخلاق[1]، وكذلك نبينا عليه الصلاة السـلام تمم تلك المكارم كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق))[2].

(١) فإن قيل: هناك اختلاف في الفروع في شرائع الأنبياء يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]. فالجواب أن ذلك لا يضر لأنه خلاف في جزء وليس خلافًا في الكليات والضروريات والمحكمات والأسس.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد(١٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد(١١٨)، وانظر السلسلة الصحيحة حديث رقم(٤٥).



٣ نماذج تطبيقية للمحكمات

الأصل في تحديد معنىٰ المحكمات هو النص القرآني في سورة آل عمران وقد فسره ابن عباس رضي الله عنهما، لما سئل عنها في قولـه تعالىٰ خطاباً لنبيـه ﷺ ولأمته: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧].

فقـال (المحكمـات هي الثلاث الآيات مـن هاهنا ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ والتي في بني إسـرائيل ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾)[١]، وأخـرج سـعيد بن منصـور وابن أبي حاتم والحاكـم وصححـه وابـن مردويه عن ابـن عباس قـال في قوله: ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ قـال: الثـلاث آيـات من آخر سـورة الأنعام محكمات »[٢].

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٧٢)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢ / ٥٩٢) تحقيق أسعد محمد الطيب، والمستدرك علىٰ الصحيحين (٢ / ٣١٦) تحقيق عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية. قال في التلخيص صحيح، فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨١).



قال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء ٢٣- ٣٩].

موضوعات المحكمات الواردة في الآيات التي جاءت في اختيار ابن عباس رضي الله عنهما :

١. وجوب عبادة الله وحده وتحريم الإشراك به.
٢. وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما.
٣. وجوب حفظ النفس وتحريم قتلها بغير حق.
٤. تحريم سائر الفواحش ومنها الزنا.
٥. وجوب حفظ المال وأداء الحقوق.
٦. وجوب الوفاء بالعهد.

٧. وجوب العدل في الإنفاق والوزن بالقسط.
٨. وجوب حفظ السمع والبصر والفؤاد.
٩. تحريم الكبر والأخلاق الفاسدة.
١٠. وجوب اتباع الصراط المستقيم.
١١. تحريم اتباع السبل المضلة.

ويلاحظ القارئ أن هذه الأحكام مجمع عليها عند علماء الإسلام في الصدر الأول من لدن الصحابة رضي الله عنهم، كما أن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما مجمع عليه، وهذه الأصول المحكمات الواردة في الآيات قد انتشرت في القرآن والسنة في مواضع لا تحصىٰ، وهي المبادئ العليا للإسلام، ويدخل فيها أركانه وأصوله وأخلاقه العظام، كما أنها قواعد الشريعة الإسلامية وأساسيات العقائد والأحكام، وهذا معظم الكتاب وسيأتي معنا إيراد كلام أئمة التفسير بأن المُحكمَات هن أم الكتاب أي معظمه.

وإذا تتبعنا الآيات التي أشار إليها الصحابي الجليل تأكد لنا ذلك، فقد ورد في ختامها وجوب اتباع الصراط المستقيم، وتحريم اتباع السبل المضلة وهو ما بينه الفقهاء من وجوب الحكم والتحاكم إلىٰ الشريعة الإسلامية كما في كتاب القضاء وكذا تحريم اتباع السبل المضلة وذلك بتحريم الابتداع وجميع

الطرق المؤدية إليه.

فأهل الأهواء والبدع تركوا السبيل الواحد والصراط المستقيم الذي يؤدي إلىٰ وحدة الأمة وهو لزوم المحكمات وترك المتشابهات ولذلك لم يتحقق لهم الاجتماع علىٰ السنة، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والمتأمل في الآيات يجد أن ابن عباس رضي الله عنهما اختار مثالين للمحكمات تكشف عن معناها وتُبيّن حقيقتها وتعرّف بها أحسن تعريف وهي الجواب الشافي.

ومن فقه ابن عباس اختيار هذا الجواب القرآني وتعريف المحكمات بالمثال ويمكن أن نشير هنا إلىٰ أن هذه الأمثلة التطبيقية تدل علىٰ أمور مهمّة منها:

- شمول المحكمات للأصول العقدية والأصول العملية كالتوحيد وتحريم الشرك بالله ووجوب العدل وحفظ النفس والمال وتحريم البدع والسبل المضلة.
- ومنها- أن هذه الأصول التي وردت في الآيات التي اختارها ابن عباس كنموذج للمحكمات تحيط بالمجتمع

من جميع جوانبه.

- ومنها- أنها السبيل الوحيد في الدنيا لحفظ الفرد والمجتمع وسبيل النجاة في الآخرة.

- ومنها- أن الالتزام بها والاعتصام بها هو السبيل الوحيد لاجتماع كلمة المسلمين وتحقيق قوتهم المعنوية والمادية، كما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

- ومنها - أن المحكمات هي الأصول التي تبنىٰ عليها علوم الشريعة كما سنبينه عند ذكر المحكمات التي يبنىٰ عليها الفقه الإسلامي.

- ومنها - أن المحكمات جاءت بحفظ الضروريات الخمس كما دلت علىٰ ذلك الآيات السابقات التي اختارها ابن عباس - رضي الله عنه - :

١. حفظ الدين دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ وقوله ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾

[الأنعام:١٥٣]. وقوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

٢. حفظ النفس دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

٣. حفظ النسل قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

٤. حفظ المال كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

٥. حفظ العقل كما في قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، حيث ربطة الآيات السابقات بين سلامة العقل وسلامة الإنسان من الآفات والخرافة، وكذا التزامه بالأحكام التي اشتمل عليها الصراط المستقيم ويدخل في ذلك كما سنبين تحريم المسكرات والمخدرات والأهواء المنحرفة التي تضر بالعقل وتفوت عليه مصالحه الدنيوية والأخروية.

وبهذا نكون انتهينا من هذا المبحث الخاص بالتطبيقات،

وقـد اتضح لنا أن الأمثلة التي اختارها ابن عباس رضي الله عنهما تمثل أساس الشريعة ومحكماتها، وتحفظ الضروريات الخمس، ولـم تقتصر علىٰ الأصول العقدية، بل شـملت الأصول العملية، كمـا أنها هـي العاصم للمجتمع الإسـلامي بحيث تكـون حافظة للضروريـات الخمـس، وعليها مـدار تحقيق المصالـح الدنيوية والأخرويـة للمكلفيـن في جميـع العصور، ولا يمكـن أن تتحقق السـلامة للفرد والمجتمـع إلاّ بها، كما أنه لا تتحقـق الوحدة بين المسلمين إلاّ بالاجتماع عليها والاعتصام بها.





٤ المحكمات عند فقهاء الإسلام

وبعد أن عرضنا نماذج من المحكمات في تفسير ابن عباس فإننا نستطيع أيضاً أن نعرض لنماذج تطبيقية لفقهاء الإسلام من خلال تتبع أصول الأبواب في الفقه الإسلامي فإننا نجد ما يلي:

أولاً: حفظ الدين وهو إقامة أركان الإسلام، وهي الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وعلىٰ ذلك بني باب العبادات في الفقه الإسلامي[١]، وكذا تحريم الإشراك بالله فإنه بُني عليه عند الفقهاء كتاب الردة[٢] .

ثانياً: وجوب حفظ العرض وذلك بحفظ الأسرة والأمر ببر الوالدين والوصية بهما خاصة عند الكبر والضعف و حفظ العرض من أهم مقاصدُ الشريعة وذلك ببيان الأحكام في كتاب النكاح ومن مقاصده تكوين الأسرة، وتكثير النسل، وقضاء الوطر وإيجاد السكينة والمودة ولهذا وردت النصوص الشرعية بحماية الأسرة كما في كتاب الحدود، كحد الزنا، واللواط، وحد القذف

---

(١) الموافقات (٢ / ٨ – ٩).

(٢) انظر علىٰ سبيل المثال المغني لابن قدامة كتاب الردة (١٢ / ٢٦٤).

ومـا يتعلق بذلـك[1]. ومتىٰ وجـدت هذه الأسـرة وتحقق مقصد الشـارع الكريـم منهـا فـإن المجتمع يقـوم بنيانه عليهـا وتتحقق مصالحه بها وذلك بتطبيق الأحكام التي شرعها الشارع الحكيم.

ثالثـًا: وجـوب حفظ النفـس وتحريـم قتلها وتحقيـق مقصد إحيائها ببيان ما أحل الشارع لها من الطيبات وبيان السبل المؤدية لها، والإنكار علىٰ من حرّم هذه الطيبات. كما أن الشارع الحكيم أحلَّ أكل الميتة عند خوف فوات النفس[2]، وكذا شـرع القصاص في النفـس والأطـراف محافظـة عليهـا وعلـىٰ ذلـك بُنـي كتاب الجنايات[3].

رابعـًا: حفـظ العقـل بوجوب حفظ السـمع والبصـر والفؤاد وهـي مقتضىٰ حفظ العقل ومن الآيـات التطبقية في حفظ العقل قولـه تعالـىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠] وذلـك بتحريم الخمر وسائر المسكرات والمخدرات مهما تعددت أسماؤها وأشكالها مـا بيـن مطعوم ومشـروب أو مشـموم..، وأوجـب العقوبة علىٰ تعاطيها، والتجارة فيها وذلك مـا بينه الفقهاء في كتاب الجنايات،

(١) المرجع السابق (١٢/ ٣٠٨، ٣٤٨، ٣٨٣).
(٢) الموافقات (٢/ ١٠ - ١١).
(٣) المغني لابن قدامة (١١/ ٤٤٣) وما بعدها.



وبيان حد المسكر[١].

خامسًا: وكذا حفظ المال كما هو مبيّن في كتاب البيوع وما يلحق به من عقود ووجوب أداء الحقوق والأمانات والوزن بالقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط المعتبرة وكفل حمايته، وذلك في تحريم العقود الفاسدة ومنها الربا، وكذا حفظه بتشريع حد السرقة وحد قطاع الطرق، كل ذلك من حفظ المال.

ومن تتبع أصول الأبواب في مذاهب الفقه الإسلامي علم علم اليقين أن أبواب الفقه قامت علىٰ تلك المحكمات البينات الواضحات بل هي معاقد الإجماع وأصول الشريعة وثوابت الملة فما أعظم فقه الصحابة رضوان الله عنهم وفي مقدمة المفسرين منهم إمام التفسير الذي دعا له النبي عليه الصلاة والسلام بالعلم حيث اختار تلك النماذج القرآنية التي هي ركائز من أصول العلم التي لا يجوز الاختلاف عليها، وقد أخطأ من جعل الخلاف السائغ في بعض الفروع سببًا للخلاف في أصول العلم والفقه، كما صنع كثير من المتفقهة وأهل الأهواء في هذا العصر.

وقد حاول كثير من المستشرقين والعلمانيين والتنويريين والعقلانين الذين اتبعوا المتشابهات صرف المسلمين عن شريعتهم

---

(١) المغني لابن قدامة (١٢/ ٩٥) وما بعدها.

وعن فقههم بحجة كثرة الاختلاف في الفروع وتعدد المذاهب الفقهية، وما زالت هذه الشبهة ينشرها المخالفون بأحكام الشريعة الإسلامية.

ولو تأمل الباحثون عن الحق منهم في فقه ابن عباس لعلموا أن الخلاف السائغ في الفروع لا يمنع المسلمين من الاجتماع علىٰ المحكمات والوحدة والاعتصام بالحق.

قال الإمام الشاطبي :« فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع.[1]

وبهذا يتبين أن « الفقه » مبني علىٰ هذه المحكمات التي أشار إليها هذا الإمام الجليل في الآيات وهي ما يطلق عليه علماء الفقه والأصول «الضروريات الخمس » وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال، وهذه واضحة فيما ورد في تلك الآيات والأحكام التي جاءات بحفظها، كما سنبين ذلك في مواضع متعددة.

ولا ريب أن النصوص التي أوجبت حفظ هذه الضروريات من الكتاب والسنة أنها من النصوص المحكمة البينة التي هي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلىٰ بيان، بل عدها بعض أهل العلم من

(١) الاعتصام (١/ ٧٦).

الضروريات في كل ملة[١].

وسنؤكد ما أجمعت عليه الشرائع السابقة في مباحث هذا الكتاب حتىٰ يعلم القارئ أن الآيات التي استدل بها ابن عباس هي الدليل والمستند لهذا الإجماع الذي انتشر بيانه وظهرت أدلته عند المفسرين من لدن الصحابة رضوان الله عليهم وعامة أهل العلم من الفقهاء والمفسرين والأصوليين.

وإذا علمنا ذلك فإن من الواجب علىٰ المكلفين المحافظة علىٰ هذه الضروريات من حيث العلم بها والعمل بها، ولا يجوز لهم أن يخالفوا عنها إلىٰ ما يضادها وإن اشتبهت عليهم بعض الأمور، وجب عليهم أن يردوا ما اشتبه عليهم إلي المحكمات[٢].

قال الإمام الشاطبي رحمه الله مبيناً أن من لزم المحكمات ورد ما اشتبه عليه إليها فإنه يسلم من الانحراف، ويحافظ علىٰ مقاصد الشريعة لأنه اتبع الشريعة وحافظ عليها في الاعتقاديات والعمليات، قال رحمه الله في بيان معنىٰ الآية ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ قال: « فجعل [الله] المحكم وهو الواضح المعنىٰ الذي لا إشكال فيه ولا اشتباه هو الأم والأصل المرجوع إليه، ثم قال

---

(١) الموافقات (٢/ ١٠).

(٢) بينا هذا كله في المباحث القادمة علىٰ سبيل التفصيل.

[سبحانه]: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ يريد وليست بأم ولا معظم فهي إذاً قلائل. ثم أخبر أن اتباع المتشابه منها شأن أهل الزيغ والضلال عن الحق والميل عن الجادة، وأما الراسخون في العلم فليسوا كذلك، و ما ذاك إلا باتباعهم أم الكتاب وتركهم الاتباع للمتشابه، وأم الكتاب يعم ما هو من الأصول الإعتقادية أو العلمية إذا لم يخص الكتاب ذلك ولا السنة..» والفقه تعريفه - كما هو معلوم عند الفقهاء - هو معرفة الأحكام المتعلقة بأفعال المكلفين ويعرف حكم الله بالرجوع إلىٰ القرآن الوحي المتلو وإلىٰ بيانه وهو السنة ولهذا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[(١)] والسنة وحي لأنها بيان من عند الله للقرآن علمه رسوله عليه السلام[(٢)].

وقد أجمع العلماء أن أصول الاستدلال المعتبرة جميعها راجعة إلىٰ معرفة مقصد الشارع، ومقصده لايعرف إلا عن طريق الوحي، الذي هو نصوص الكتاب والسنه ويطلق عليها الشريعة[(٣)]. وهذا ما أكد عليه العلماء المجدون ومنهم الإمام الشافعي ناصر السنة في كتابه [الرسالة].

---

(١) أحمد في المسند (٤ / ١٣٠)، والترمذي (٢٦٦٤).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٣)، وشرح السنة للبغوي، والرسالة للإمام الشافعي.

(٣) انظر بيان كون القياس منهجاً شرعياً وهو من أسس شمول الشريعة، كتاب الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية للمؤلف [ص ٤٠٧].

وعلىٰ هذا الاساس يكون المصدر الوحيد - للتشريع والقضاء ولمنهج الاستنباط والاجتهاد في الاسلام- هو الوحي ويسمىٰ (الشريعة) وهي التي أمر الله سبحانه وتعالىٰ باتباعها ونهىٰ عما يخالفها من المناهج والقوانين التي يضعها البشر حين يتركون شريعة الله وقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الجاثية:١٨] ويجب علىٰ المسلمين أن تكون دساتيرهم وأنظمتهم مبينة علىٰ تلك الأحكام الشرعية.

وبهذه الطريقة يتعرف المسلمون علىٰ أحكام دينهم في جميع أمورهم الخاصة والعامة عن مصدر وحيد ليس معه مصدر آخر في التشريع ألا وهو ((الوحي)) الذي ينزله سبحانه وتعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ ويترتب علىٰ هذا الاعتقاد الصحيح أمور عظيمة تميز بها الصادقون من أهل الإسلام وهم في ذلك تبع لكل أمة مسلمة من أمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]. وإن من أعظم الأمور المشتركة بين رسالات الأنبياء عليهم السلام في جميع العصور أنهم أمة مسلمة لله بالتوحيد منقادة له بالطاعة خالصة من الشرك ومخالفة للآلهة

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وهذا الذي يميّز المسلمين عن المشركين، لأن الشريعة الإسلامية الوحي هي مرجعية العقائد والأحكام والقوانين.

وبهذا نكون بينا في هذا المبحث الخاص أن المحكمات قد بُني عليها الفقه الإسلامي وهي تمثل أساس الشريعة، وتحفظ الضروريات الخمس، ولم تقتصر على الأصول العقدية، بل شملت الأصول العملية، كما أنها هي العاصم للمجتمع الإسلامي بحيث تكون حافظة للضروريات الخمس، وعليها مدار تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية للمكلفين في جميع العصور.

٥ المحكمات عند المفسرين

قال الله تعالىٰ خطاباً لنبيه ﷺ ولأمته : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧].

قال ابن كثير رحمه الله مؤكداً هذا المعنىٰ : « ويخبر تعالىٰ أن في القرآن آيات محكمات هنّ أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها علىٰ أحد ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة علىٰ كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلىٰ الواضح منه وحكّم محكمه علىٰ متشابهه عنده فقد اهتدىٰ ومن عكس انعكس، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه[1] ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : [المحكمات] في قوله

(١) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير دار الهداية للنشر (٣٠١ - ٣٠٢)، انظر جامع البيان لابن جرير (٣/ ١٧٤)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤ / ١٠).



تعالىٰ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام:١٥١] وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[الإسراء:٢٣] إلىٰ ثلاثة آيات بعدها، ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن ابن سعيد ابن جبير :» هن أم الكتاب « يقول أصل الكتاب وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، وقال مقاتل بن حيان : « لأنه ليس من آهل دينا إلا يرضىٰ بهن...» (وقال محمد ابن يسار رحمه الله : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال: «فهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عمّا وضعن عليهن) ولذا قال محمد ابن جعفر ابن الزبير: قال: والمتشابهات في الصدق لها تصريف وتحريف وتأويل ابتلىٰ الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألاّ يُصرفن إلىٰ الباطل، فلا يُحرفن عن الحق ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلىٰ الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلىٰ مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها باحتمال لفظه لما يُصرِفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون علىٰ بدعتهم بالقرآن، وهذا

حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارىٰ لأن القرآن نطق بأن عيسىٰ هو روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[الزخرف:٥٩] وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المُصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبدٌ ورسولٌ من رسل الله. وروىٰ الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فقال: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنىٰ الله فاحذروهم»[1] وأخرجه البخاري ومسلم، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي [الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق] وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد لقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي إنما يفهم ويعقل وليتدبر لمعاني علىٰ وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة[2].

(١) روىٰ هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنة من سننه.

(٢) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير دار الهداية للنشر [صـ ٣٠٢-٣٠٤].

ومـن معاني :(﴿ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي معظمه، قال الإمام البغوي في شـرح السنة: قوله سـبحانه وتعالىٰ : ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي معظمه يُقال لمعظم الطريق أم الطريق[1] ومنه قوله عز وجل : ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ أي في معظمها[2]

وقال الإمام الشاطبي – رحمه الله – مبيناً أن من لزم المحكمات ورد ما اشـتبه عليه إليها فإنه يسـلم من الانحـراف، ويحافظ علىٰ مقاصد الشـريعة لأنه اتبع الشـريعة وحافظ عليها في الاعتقاديات والعمليات .

وذلـك بنـاءً علـىٰ أنّ الصحابة رضـوان الله عليهـم ثبتوا علىٰ الأصـول الاعتقادية العمليـة، وحافظوا علىٰ مجتمعهـم بإقامتها وهي المحكمات التي هي أسـاس الشـريعة وهي تشـمل الأمور الاعتقادية والعملية، وقد أحسـن الإمام الشـاطبي في الاسـتدلال بحديث الطائفة الناجية وقوله عليه الصلاة والسلام في وصفها لما سُئل عن صفاتها قال : « ما أنا عليه وأصحابي »[3] .

قال الشاطبي : « فإن المخالف لهم في أصل من أصول الشريعة

---

(١) النهاية (٢ / ٢٤٢) الصحاح (٦ / ٢٢٣٦).
(٢) شرح السنة (١ / ١٩١).
(٣) أخرجه الترمذي (ح ٢٦٤١) من حديث عبدالله بن عمرو العاص، وهو حديث حسن.

العملية لا يَقْصُر عن المخالف في أصل من الأصول الاعتقادية في هدم القواعد الشرعية »[١]

وخلاصة القول أن الأمثلة التي اختارها ابن عباس - رضي الله عنه - تمثل أساس الشريعة ومحكماتها، وتحفظ الضروريات الخمس، ولم تقتصر علىٰ الأصول العقدية، بل شملت الأصول العملية، كما أنه هو العاصم للمجتمع الإسلامي بحيث تكون حافظة للضروريات الخمس، وعليها مدار تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية للمكلفين في جميع العصور.

وعليها انعقد إجماع الأمة في كل عصر، وعليها بني الفقه الإسلامي كما بينا سابقاً، وعليها قامت شرائع الإسلام عند جميع الأنبياء - عليهم السلام - ولم تختلف فيها كما سيأتي بيانه وتحريره.

قال ابن جرير الطبري المفسر الفقيه رحمه الله: «.. وأما قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ فإنه يعني بالآيات آيات القرآن، وأمّا المحكمات فإنهن اللواتي قد أُحْكِمن

بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن علىٰ ما جُعلن أدلة عليه من حلال وحرام ووعد ووعيد، وثواب وعقاب وأمر

(١) الموافقات (٤/ ١٧٧ - ١٧٨)

وزجر وخبر ومَثَلْ، وعظة وعبر وما أشبه ذلك.

ثـم وصف الله جـل ثناؤه هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.. يعنـي بذلك أنهـن أصل الكتاب الذي فيـه عماد الدين والفرائض والحدود، وسـائر مـا بالخلق إليه حاجة من أمر دينهم وما كُلفوا من الفرائض في عاجلهم و آجلهم، وإنما سماهن ﴿ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لأنهـن معظم الكتاب وموضع مفزع أهله عند الحاجة، وكذلك تفعل العرب : تُسـمىٰ الجامع معظم الشـيء أمًّا له، فتسمىٰ راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمّهم»[1] .

وقال النحاس : «أجمع هذه الأقوال : أن المحكم ما كان قائمًا بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلىٰ غيره» [2].

قـال القرطبـي : «ما قاله النحـاس يُبيّنُ ما اختـاره ابن عطية وهو الجاري علىٰ وضع اللسان وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحـكام الإتقان ولا شـك أن ما كان واضح المعنىٰ لا إشـكال فيه ولا تردد».. [3].

قال ابن عطية : «والمحكمات المفصلات المبينات الثابتات

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٧٠)، وانظر كونها معظم الكتاب شرح السنة.
(٢) معاني القرآن الكريم للنحاس (١ / ٣٤٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤ / ١١)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤١٣).

الأحكام»[١] .

وقال ابن كيسان : «إحكامها بيانها وإيضاحها، وقد يكون إيجابها وإلزامها، وقد يكون أنها لا تحتمل إلا معاني ألفاظها ولا يضل أحد في تأويلها»[٢].

وقال ابن كثير : «معنىٰ المحكمات أي البينات الواضحات الدلالة لا التباس فيها علىٰ أحد»[٣].

قال القرطبي : «فالمحكم أبداً أصل ترد إليه الفروع»[٤].

وهذه المحكمات التي بيّن أهميتها علماء التفسير هي التي ترفع عن المكلف ما اشتبه عليه، إما بسبب قصور فهمه وإما بسبب شبهة يدخلها عليه غيره، وفي كلا الحالين يحمله ذلك التقصير وتلك الشبهة علىٰ مخالفة أمر الله سبحانه وتعالىٰ فالمخرج له من ذلك أن يعتصم بطاعة الله ورسوله ﷺ، وأن يدفع ما ورد عليه من الاشتباه بالاعتصام بتلك المحكمات، فيسلم حينئذ من الافتتان بالشبه، ويثبت علىٰ الطاعة ولا يزيغ قلبه عنها .

والفتنة كما ورد تفسيرها هي الشرك، ويدخل فيها جميع

(١) المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق احمد صادق (٢ / ٣٣٣).
(٢) معاني القرآن الكريم للنحاس (١ / ٣٤٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٣٥٢).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤ / ١٠).

الأهـواء[1]. قولـه تعالـىٰ ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور: ٦٣] قـال ابن كثيـر : « أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَـةٌ أي في قلوبهـم مـن كفـر أو نفـاق أو بدعة »[2] وقولـه تعالىٰ: ﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] أي يصدوك ويردوك.

وقـال تعالىٰ عن المنافقيـن : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾[الحديد :١٤] أي فتنتـم أنفسـكم وأوقعتموها في النفاق بسبب المعاصي والملذات [3].

وقد حرر الإمام الشاطبي ضابطـًا للفتنة فقال : « وضابط الفتنة ما صد عن طاعة الله »[4].

وتأمـل افتتان كثيـر من الخلق بالخرافة والشـرك والكهانة فإنه لا يتصور أن يسـلموا من ذلك إلا إذا اعتصموا بالكتاب والسـنة، وتركوا ما هم فيه، فإن غاية ما عند المشـركين إنما هو شـبه افتتنوا بها، ولو اتبعوا المحكمات ومنها الآيات الآمرة بالتوحيد وصرف العبادة لله سبحانه والناهية عن الشرك والخرافة والسحر والكهانة

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٢٢٧)، وتفسير ابن عطية (٢ / ٣٣٨)، وانظر رسالة الفتنة وموقف المسلم منها(٢٩ – ٣٠).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٣٠٨).
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤ / ٣١٠).
(٤) الاعتصام (١ / ٤٣٨) تحقيق الأستاذ سليم الهلالي .



لسلموا مما وقعوا فيه[١].

وطريقة الزائغين التي حذر منها القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] ترجع إلىٰ هذه الأمور:

أ- اتباع المتشابه وعدم رده إلىٰ المحكم.

ب- عدم جمع أطراف الأدلة.

ج- الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة والموضوعة في رد المحكمات.

د- عدم رد الفروع الجزئية إلىٰ القواعد الكلية[٢].

والواجب الحذر من هذه الأمور والرجوع إلىٰ منهج القرون المفضلة من الصحابة والتابعين والاقتداء بهم.

ولهذا كان تفسير إمام المفسرين ابن عباس - رضي الله عنهما - للمحكمات بأمثلة هي أصل وعماد لفروع كثيرة وجزئيات لا تنحصر وهي عاصمة من الزيغ والضلالة.

---

(١) انظر تفسير ابن عطية (٢/ ٣٣٨).
(٢) الاعتصام (١/ ٢٤٩).

وإن اختيـاره للآيات من سـورة الأنعام من[١٥١ - ١٥٣]، ومن سـورة الإسـراء من [٢٣ - ٣٩]، يدل علىٰ عظيم فقهه فهي نموذج واضح تنطبق عليه تلك الأوصاف التي ذكرها المفسـرون بعده للمحكمات، وهذا هو الذي فهمه ابن عطية رحمه الله حيث قال: « وهذا عندي - أي قول ابن عباس - مثال أعطاه للمحكمات »[١] أي المثال الذي ذكره في سورتي الأنعام والإسراء.

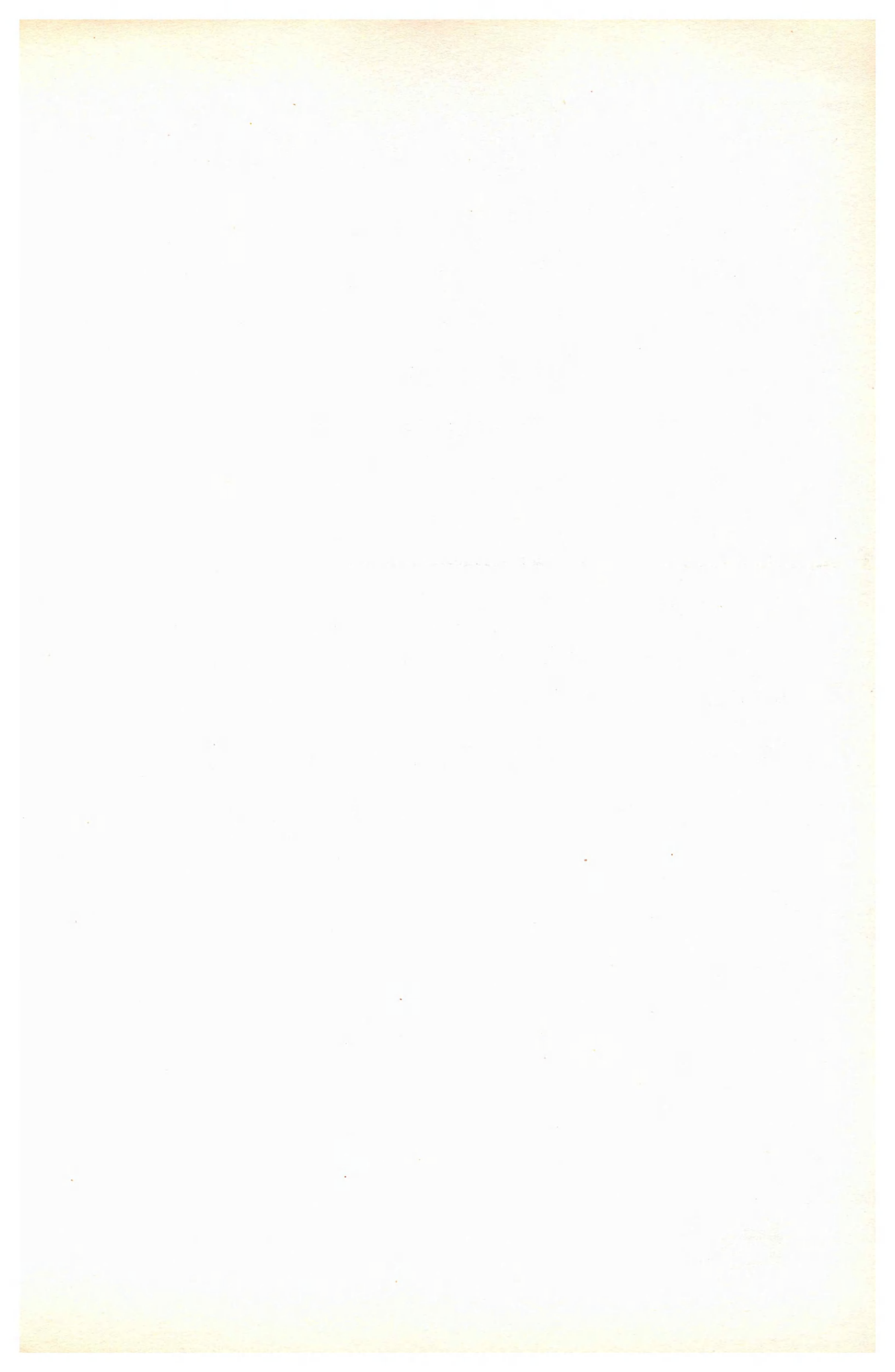
ومثلـه مـا جاء في كتـاب التحريـر والتنويـر: قال بـأن مقصد ابـن عبـاس بالتمثيل بهذه الآيات: بأن المحكـم ما لا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله، وتحريم الفواحش وذلك ما تضمنته الآيات من سورة الأنعام والآيات من سورة الإسراء[٢].

واختيـار هذه النمـاذج عند بن عبـاس وغيره إنما هـي للمثال وليس للحصر.

ونحـن إذا تأملنـا كلام المفسـرين نجـده يؤكـد أوصـاف المحكمـات في تعريفات الأصوليـين السـابقة فالمحكم عندهم جميعـًا موصوف بأوصاف متعددة، من ذلك وصفها بأنها بينات، وأنهـا معظم الكتـاب، ومنهم مـن وصفها بأنها أصـل وعماد كما

(١) تفسير ابن عطية (٢/ ٣٣٤)، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ١٠).
(٢) التحوير والتنوير (٣/ ١٥٥).

في كلام ابـن جريـر، ومنهم من وصفها بأنها حجـة وعصمة ودفع للخصـوم كما في كلام محمد بـن إسـحاق ومحمد بـن جعفر، ومنهم مـن وصفها بأنها بينـات واضحات لا تحتـاج إلىٰ غيرها، وهـذا واضح في كلام النحـاس وابن عطية وابن كثيـر و القرطبي حيـث وصفها بأنهـا أصل، وهذه الأوصاف يؤكـد بعضها بعضـاً، فالمحكمات بينات واضحـات، لذا كانت أصلاً وعماداً وعصمة وحجة تُدفع بها الخصوم، وعلاجـاً لجميع المتشابهات إذا طرأت علـىٰ المكلف ووقاية منهـا قبل وقوعها، وهـي حصن للمجتمع الإسـلامي، وحماية للشـريعة وأتباعها إلىٰ يوم الدين، والرد إلىٰ تلك المُحكمَات هو منهج أهل السـنة، ولهـذا تميّز منهجهم بأنه حق وهـدىٰ وواضح، ومبني علىٰ أصل وعمـاد وحجة بينة وهذا المنهج هوالمنهج الحق المبني علىٰ الكتاب والسنة.



٦ حاجة البشرية إلى المحكمات

يتساءل الكثيرون عن أهمية المحكمات ودورها في حياة البشرية في هذا العصر الذي انتشرت فيه العقائد والأفكار القديمة والحديثة، وتوسعت فيه وسائل الاتصال الحديثة حتىٰ عمت الأرض أو كادت، وتواصل فيه أصحاب الاتجاهات والاجتهادات البشرية، سواء أكانوا مسلمين أم من غيرهم، وظهرت فيه مناهج للإصلاح كثيرة عند الأمم، اتجه بعضها نحو الإصلاح الاقتصادي ' ومنها ما اتجه نحو الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، ومنها ما اتجه نحو الإصلاح السياسي، ومنها ما اتجه نحو إصلاح العامة، وكثر فيه الجدل بين العلماء والمفكرين والحكماء وشارك في ذلك العامة والخاصة وأصحاب الرأي، وهؤلاء وأولئك يسعون إلىٰ تحقيق العدل والحرية والإصلاح، كلٌ حسب مفهومه وإدراكه ورغبته واتجاهاته. وكثير من تلك الجهود لم تفلح في تحقيق الهدف المرجو، ولهذا فشلت المذاهب الفكرية المعاصرة وتعددت مشاربها من شيوعية، وعلمانية، ووجودية، ومادية وقومية، وبعثية، وهكذا سبقتها الفرق

الإسلامية وغير الإسلامية قديماً، وقدمت أفكارا للبشرية، واتجه كثير من البشر شطرها كل أخذ منها حسب اختياره ورغبته وهواه، وأنتجت هذه الأفكار مفاهيم وشرائع وأحكام وقوانين وضعية بشرية في جميع مجالات الحياة، اختلفت باختلاف مشاربها واجتهادات مفكريها،وصبغت هذه الأفكار والشرائع الحياة البشرية المعاصرة بصبغة بشرية وضعية تارة باسم الشيوعية وتارة باسم العلمانية،وتارة باسم الأديان المبدلة وكذا الأديان الوضعية إلىٰ آخر ما هناك من طروحات وأفكار سبقت الإشارة إليها من علمانية وقومية وبعثية، وكذلك أخذت الفرق القديمة والحديثة مساحتها في هذه الدائرة، وبدلت في شرائع الإسلام وخالفت عن رسالة الأنبياء التي هي الإسلام والتي جددها رسول الإسلام محمد بن عبد الله عليه وعلىٰ إخوانه السلام.

ومن هنا يتساءل المسلم وغير المسلم عن الجديد الذي تميّز به الإسلام، وجددهُ رسول الإسلام وجاهد من أجل إعادة البشرية إليه.

ويتساءل مرة أخرىٰ عن حل هذه المعضلة التي كان لها الأثر السيئ في حياة البشرية.

ويتساءل عدة مرات عن تاريخ هذه المشكلة هل هي قديمة أم

حديثة، ونحن في هذا الكتاب نمهد للقارئ المسلم و غير المسلم من أتباع الديانات المبدلة لكي يعيش معنا ويتصور المشكلة الكبرىٰ في حياة البشرية ودور المحكمات العقدي والتشريعي في تقديم الحلول المناسبة لها علىٰ مدار التاريخ البشري.

ولأنه من مقصود هذا الكتاب مخاطبة العامة والخاصة، رأينا من المناسب أن نقدم نماذج من الحوارات التاريخية حول معالجة هذه المشكلة التي أرهقت البشرية وغيرت مسارها من نشأة واحدة علىٰ التوحيد والتعاون والوحدة والمبادئ السامية إلىٰ أمم متفرقة، وأفكار متناحرة وجاهليات عبر التاريخ، تقوم علىٰ غلو الفكر وانحراف العقائد وانتهاك الحرمات والشر والفتنة، وصور القرآن بعض مظاهرها في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٨ - ٩] ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩]. ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وصورة الجاهليات القديمة والحديثة واحدة نزاعات وغلو وانحرافات فكرية وشرك وخرافة وصراعات وقوميات وعصبية،



وقد كشف القرآن الكريم عن ذلك وحذر منه، لهذا أحببنا أن نصحب القارئ في زيارات متعددة للعالم عبر التاريخ وسنختار له بعض الأحداث المؤثرة والقصص والوقائع التي عاشها أصحاب الأفكار والديانات وتحاوروا حولها حتىٰ يستطيع أن يتعرف علىٰ دور المحكمات في إصلاح البشرية قديماً وحديثاً من خلال واقع تطبيقي شارك فيها علماء الأديان وعلماء الإسلام.

وهذا أسلوب محبب للنفوس يجمع بين الدرس التاريخي والعقدي والإيماني والعقلي والعاطفي ويصحح المعلومات حول الموضوعات المطروحة للحوار. وفيها دروس للمسلمين ولغيرهم في آداب الحوار وطرائقه وأساليبه، وعرض المحكمات كما جاء في الكتاب والسنة هو من أحسن الطرق المؤدية إلىٰ تلبية تلك الحاجة الملحة اليوم، فقد فرقت البشرية بين الله ورسله، كما نشرت العداوة ضد بعض الرسل والرسالات السماوية وبدلت الدين الحق، وشرعت الشرائع والعقائد الضالة، وحرفت دين الأنبياء عليهم السلام وأدخلت الشرك والخرافة علىٰ التوحيد فأفسدته ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف:١٠٦] وافتقدت المرجعية الصحيحة، فاتبع غير المسلمين المذاهب الفكرية المنحرفة، وحرفوا الدين، وأخروا مرتبته،وأبعدوه عن

حياتهم، وما بقي من المحرف لم يغنِ عنهم شيئاً، واختلفوا وتفرقوا ونسبوا للأنبياء الباطل، وكذبوا على الله وفرقوا بين الله ورسله.

وأصبحت أكبر مشكلتين في تاريخ البشرية المعاصرة هي:

- الشرك والخرافة بدل التوحيد وصحة الاعتقاد.
- التفريق بين الله ورسله بدل الإيمان بالله ورسله جميعاً.

ومن هنا لا نتصور أن تتبع البشرية الدين الصحيح الذي سماه الله الإسلام إلا بترك هذين الانحرافين الكبيرين، لتصبح صحيحة الاعتقاد ولكي تؤمن بالرسول الخاتم محمد بن عبد الله رسول الإسلام، وجميع إخوانه المرسلين، ولا تفرق بين أحد منهم، وقد حذر القرآن من هذا الانحرافات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ ﴾[النساء:١٥١].

ولأن كانت هذه المعضلة الكبرى اليوم هي التي حالت بين البشرية والإسلام فإنه من المعلوم عند علماء الإسلام أنه لا حل لها إلا بأن تلتزم البشرية بالمحكم الأول ألا وهو التوحيد، وترك الشرك، والمحكم الثاني الإيمان بالرسل جميعا عليهم السلام.

ومن هنا نعلم أهمية تنويه القرآن بالمحكمات في سورة آل عمران وأنها العلاج الوحيد للمتشابهات التي وقعت فيها البشرية، وإذا كان هذا هو الحل الوحيد لمشكلة البشرية وانحرافاتها ومتشابهاتها فكذلك هو الحل الوحيد لانحرافات المسلمين.

إن الخرافة ضربت بأطنابها في العالم الإسلامي وانتشر الشرك في عبادة الله، وصرفت العبادة والنسك لغير الله، ومن ذلك الدعاء والنذر والتضرع، كما شرع دعاة المذاهب الفكرية من علمانية وغيرها شرائع تنازع حق الله في التشريع، وتشرع من دونه وتحل الحرام وتحرم الحلال، وتدعوا إلىٰ معارضته حاكمية الشريعة الإسلامية، ولا علاج لهذه المشكلة إلا بالالتزام بالمحكمين السابقين:

الأول: توحيد الله في عبادته وترك الشرك.

الثاني: توحيد الله في طاعته (اتباع الرسول)

وتَرْكُ الشرك في عبادته، وتَرْكُ الشرك في حكمه هو أساس القبول قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠] وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف:٢٦] ولا سبيل للإصلاح في الأرض إلا بتحقيق عمومية الرسالة الخاتمة التي أرادها الله للبشرية، وأقام بها الحجة علىٰ

البشر، ولا تحقيق لهذه الرسالة في واقع البشرية إلا بتحقيق هذين المحكمين الأساسين.

ومن هنا تظهر حاجة البشرية للمحكمات.

ونؤكد هنا علىٰ ما أكده واهتم بِهِ المجددون في الإسلام من أن معالجة الانحرافات الكبرىٰ لا يمكن أن تكون عن طريق معالجة الانحرافات الجزئية، وتقديم الحلول الفرعية لها، وإنما الحل يكمن في معالجتها بأصول العلم التي سماها القرآن المحكمات، وهي المرجع والأصل والجامع والمعظم[1].

وإذا كانت المحكمات هي معظم الكتاب وأصله وجوامعه وهي العاصمة للبشر من الفتن التي وقعوا فيها بسبب انحرافاتهم فلا ريب أن من تأمل فيها من خلال اختيار ابن عباس لتلك النماذج، ومن خلال ما ذكرناه من الأمثلة سيعلم علم اليقين أنها هي الطريق الوحيد لإصلاح البشرية، كما أنها سبب مهم في تشخيص مشاكل البشرية الأساسية.

ومن أراد الإصلاح الحقيقي فلا بد أن يحدد المشكلة

---

(١) ولهذا حدد كل مجدد المشكلة الرئيسية في عهده وعالجها بنوع من الاهتمام والتركيز ولم يكتف بالحديث العام عن الإسلام وصفات الشريعة وخصائصها أو المعالجة الجزئية بل نوه واهتم بما تدعو الحاجة إلىٰ بيانه، وكذلك صنعنا في هذا الكتاب.

الأساسية ثم يطلب العلاج لها.

- ومما يؤكد حاجة البشر للمحكمات أيضًا أنها تذكرها بفطرتها الأصلية ففطرة الله التي فطر الناس عليها هو التوحيد والاعتقاد الصحيح وهذا هو العلاج الوحيد للخرافة والشرك والسحر والشعوذة والعقائد الفاسدة.

كما أن من فطرة الله التي فطر الناس عليها كراهية الظلم والبغي والفواحش، وقد جاء تحريم ذلك كله في الدين القيم، والدين القيم قد حافظ علىٰ مكونات الفطرة البشرية السوية. والأمثلة في هذا المجال كثيرة، فالمحكمات التي سبقت الإشارة إليها تذكر البشرية بفطرتها وتردها إليها، ومما يؤكد حاجة البشرية أيضا والمسلمين خاصة لهذا الموضوع أن دعاة الضلالة المنتسبين للإسلام جهدوا في تغيير المسميات الشرعية، والعقائد الصحيحة، وأصول الأحكام، وحاول العلمانيون وغيرهم تغيير ثوابت الشريعة باسم العلم والتأويل الفاسد والمتغيرات والمصالح، ولا يقف في وجه هؤلاء المبدلين إلا المحكمات لأنها ترد علىٰ متشابهاتهم وضلالهم[1].

---

(١) انظر كتابنا موقف أهل السنة والجماعة من المصطلحات الحادثة ودلالاتها، دار طيبة.

ومن الأسباب المهمة لهذا الموضوع هو تقديم الإسلام للناس بعيدا عن الغموض والجدال المذموم والفلسفة والتعقيد والخلاف المذموم، حتىٰ يتسنىٰ لهم من خلال المحكمات فهم الإسلام بوضوحه وبساطته وسهولته ويسره فيتحقق لهم الاعتقاد الصحيح في الأركان والأصول، وينتشر الإسلام في العالم من خلال ذلك بعيدا عن تراث الفلاسفة والفرق، وإذا كانت حاجة البشرية للحوار ما زالت قائمة فإن خير موضوع يطلبه الحوار والتفاهم هو حفظ الضروريات للعالم، مجتمعاً وأفراداً. وكذلك ما زالت الحاجة قائمة إلىٰ تعاون بين المسلمين أنفسهم علمائهم ودعاتهم ومصلحيهم ومثقفيهم وعامتهم وخاصتهم وخير ما يكون عليه التعاون والنصرة هو تلك المحكمات، ولعلنا من خلال هذه التأملات أشبعنا رغبة القارئ حول السؤال المهم آلا وهو ما مدىٰ حاجة البشرية للمحكمات في هذا العصر، وحاجة المسلمين والعلماء والدعاة والمربين لها في جميع مجالات الإصلاح والتعليم والدعوة.



٧ أوصاف المحكمات والأدلة على ذلك

إن الأمثلـة التطبيقيـة التي سـبق بيانها عنـد ذكـر كلام الفقهاء والأصوليـون، تمثـل في الحقيقـة قاعـدة المحكمـات، ذلـك أن النصـوص الدالـة علـىٰ المحافظة عليهـا بينـة ومحفوظة وأصل وأساس في الشريعة الإسلامية.

وننبـه في هـذا الموضـع إلىٰ مـا فصلنا فيـه القول مـن مذاهب الأصوليين، وتبين لنا هنـاك أن هذه الأوصاف قد اشـتمل عليها اسم المحكم عند الأصوليين سواء منهم من لاحظ كونه محفوظـًا غير منسـوخ، أو من لاحظ كونه بيّنـًا مسـتقلاً بنفسه، أو من لاحظ كونه أصلاً وأساسـًا.

وقد رُبطت هذه الوجوه أو الخصائص بما ورد في آية آل عمران من أوصاف للمحكمات.

ونحـن إذا تأملنـا كلام المفسـرين لآية آل عمـران في المبحث السـابق نجـده يؤكـد أوصـاف المحكمـات عنـد الأصوليـين، فالمحكـم عندهـم جميعـًا موصوف بأوصاف متعـددة، من ذلك وصفها بأنها بينـات، وأصل وعماد كما في كلام ابن جرير، ومنهم

من وصفها بأنها حجة وعصمة ودفع للخصوم كما في كلام محمد بن إسحاق ومحمد بن جعفر، ومنهم من وصفها بأنها بينات واضحات لا تحتاج إلىٰ غيرها، وهذا واضح في كلام النحاس وابن عطية وابن كثير و القرطبي حيث وصفها بأنها أصل، وهذه الأوصاف يؤكد بعضها بعضاً، فالمحكمات بينات واضحات، لذا كانت أصلاً وعماداً وعصمة وحجة تُدفع بها الخصوم.

وهذه خصائص المحكمات التي وردت الإشارة إليها في سياق آية آل عمران وبيان ذلك كما يلي :

١. كونها بينات وهذا مأخوذ من وصفها بأنها عماد وأصل وأساس،والإحكام من معانيه الإتقان والوضوح، فهي أصل وأساس يُرد إليها عند الاشتباه، ولا يُرد إلا إلىٰ الواضح البيِّن، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران : ٧]. فالراسخون يردون محل الاشتباه إلىٰ المحكمات لأنها أصل وأساس يرفع الاشتباه، ولا يرفع الاشتباه إلا البينات.

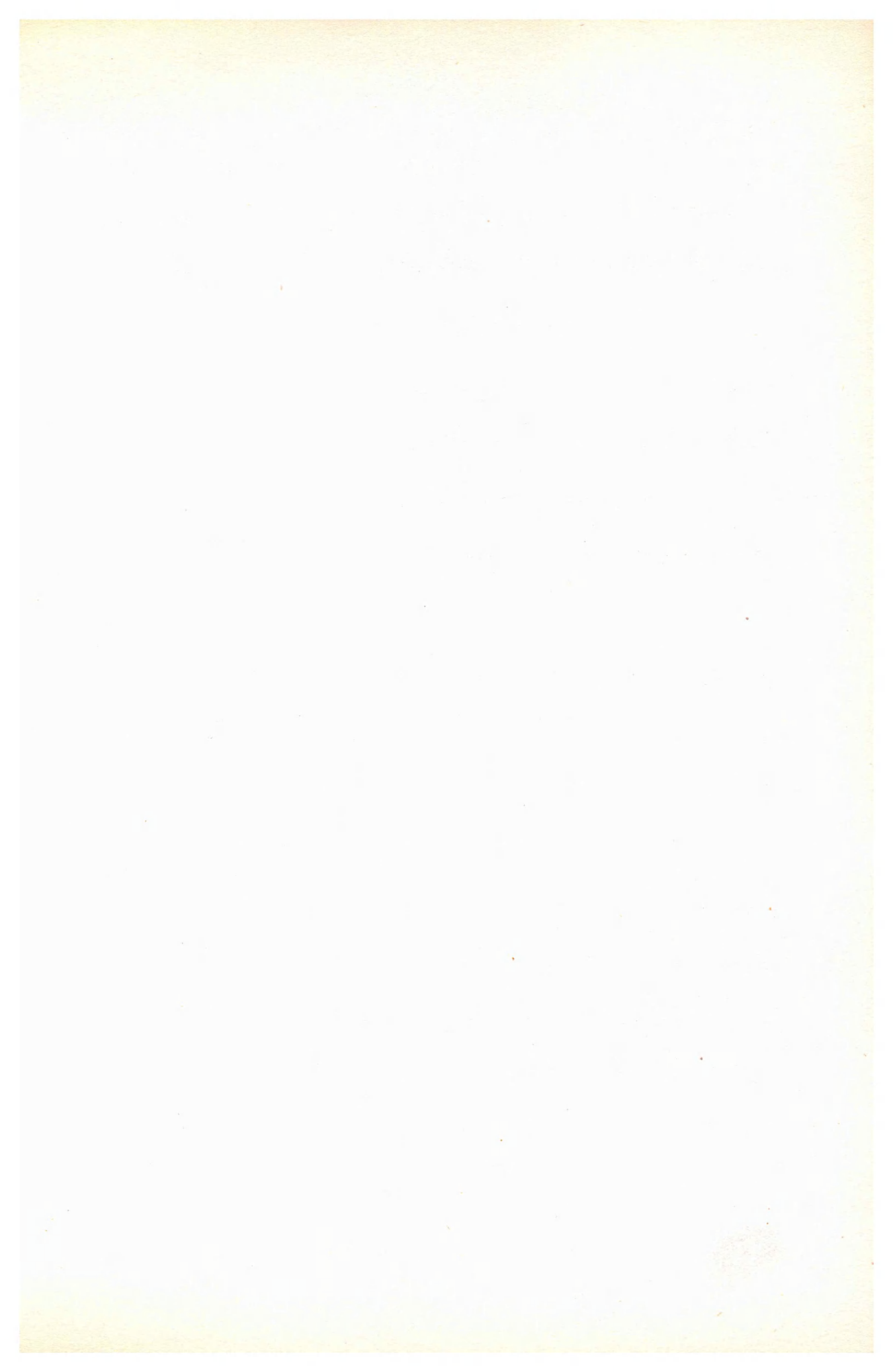
٢. كونها معظم الكتاب فإن من معاني أم الكتاب أي معظمه كما سبق بيانه.

٣. كونها أصلاً وأساساً والدليل على ذلك أن المحكمات وصفت في الآية بأنها أم الكتاب أي أصله وعماده كما ذكر ابن جرير وغيره وأم كل شيء أصله وأساسه.

٤. كونها حجة تدفع الخصوم وأهل الزيغ، وهذا الوصف مأخوذ من الآية نفسها، لأن أهل الزيغ والفتنة إنما فتنوا وزاغوا لما تركوا المحكمات وهي حجة عليهم تكشف باطلهم وتدحضه وكذلك صنع علماء السنة حيث احتجوا عليهم بالمحكمات.

٥. كونها عاصمة من الضلالة، وهذا الوصف مأخوذ من الآية، لأن الراسخين في العلم لما علموا بها وردوا إليها المتشابهات عصمهم الله من الضلالة، وأهل الزيغ لما أعرضوا عنها لم يُعصموا من الضلالة.

٦. كونها محفوظة غير منسوخة، وهذا الوصف مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾ كما مر بيانه في المعنى اللغوي وكلام المفسرين، وقد سبق ذكر كلام الأصوليين فإذا أطلقوا القول: بأن النص محكم، فإن ذلك يفيد أنه محفوظ غير منسوخ.



٨ أمثلة تطبيقية لأوصاف المحكمات

ولتوضيح أوصاف المحكمات علىٰ ما ورد في آيات سورتي الأنعام والإسراء التي اختارها ابن عباس رضي الله عنهما نضرب الأمثلة التالية:

١ - الوصف الأول : كون المحكمات بينات واضحات يسع كل مكلف فهمها وإدراكها والعمل بها ونختار مثالين :

المثال الأول : الأمر بعبادة الله وحده وتحريم الشرك : فإن المكلف العاقل إذا سمع كلام الله أدرك ما معنىٰ عبادة الله وحده، بحيث يعلم أن عبادة الله تكون بالخضوع له ظاهراً وباطناً، فالله وحده هو إلهه الذي يخافه ويسجد له ويتعبد له بالصلاة والزكاة والحج..، ولا يصرف شيئًا من هذه العبادة لغيره، فلا يسجد لغير الله، ولا يصوم ولا يحج لغيره، ولا يطوف بغير بيته، ولا يدعو غيره، ولا يذبح إلا لله، ولا ينذر إلا له، ولا يستغيث إلا به، ولا يحب إلا فيه، ولا يوالي أعداءه، ولا يتحاكم إلا إلىٰ شريعته[1]

المثال الثاني : تحريم الفواحش ومنها الزنا : فإن هذا المذكور

---

(١) وكذا تحريم السحر والكهانة والتنجيم. وانظر الروض المربع شرح زاد المستقنع باب أحكام المرتد (٣٥١ - ٣٥٥).

في الآيـات بيِّن واضح لا التباس فيه علـىٰ أحد، والمكلف العاقل يـدرك معنـىٰ تحريم الزنـا وكذا سـائر الفواحش، ويعلـم أن هذه الفواحـش ممقوتـة عنـد الله سـبحانه، وأنهـا فسـاد في الأرض، فيجتنبهـا ويمقتها ويَحذَّرُ منها، وكذلك يقبل ما جاء من آيات الله في تحريـم الربا والظلم والبغي بغير الحق، ويقبل أيضـاً الواجبات المعلومات من النصوص الشرعية.

٢- الوصف الثاني : كون المحكمات أصلاً وأساساً لغيرها وهي معظم الكتاب.

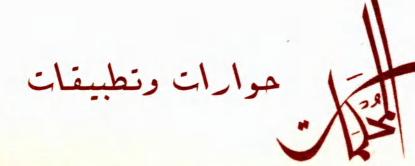
وبيان ذلك : أن المحكمات هي معظم الشـريعة - كما قال أهل العلم في تفسـير الآيات من سورة آل عمرآن - ونختار في هذا الموضـع مثـالاً فقهيـاً لنبين مـن خلاله كيف تكـون المحكمات أصلاً وأساسـاً.

المثال على ذلك : حفظ النفس.

فإن النصوص المحكمة قد أمرت بحفظها من حيث الوجود - كمـا بينـا سـابقـاً - ومن حيث العـدم، ومن أمثلة ذلك شـريعة القصاص، فإنها تحافظ علىٰ النفوس حتىٰ لا يتعدىٰ علىٰ حرمتها أحـد بغير حق[1]، فيجب قتل القاتل عمـداً إذا لم يَعْفُ ولي الدم، كمـا يجـب القصـاص في الأطراف، فاليد باليد، والسـن بالسـن،

(١) المغني لابن قدامة (١١ / ٤٥٨).





والجروح قصاص، وهذه الأحكام أصل وأساس في المحافظة على مقصد الشارع.

٣- الوصف الثالث : كونها تعصم المكلف من الفتنة والزيغ وبيان ذلك :

أن المكلف تشتبه عليه أمور إما بسبب قصور فهمه وإما بسبب شبهة يدخلها عليه غيره، وفي كلا الحالين يحمله ذلك التقصير وتلك الشبهة على مخالفة أمر الله - سبحانه وتعالى -، فالمخرج له من ذلك أن يعتصم بطاعة الله ورسوله ﷺ، وأن يدفع ما ورد عليه من الاشتباه بالاعتصام بتلك المحكمات، فيسلم حينئذ من الافتتان بالشبه، ويثبت على الطاعة ولا يزيغ قلبه عنها .

والفتنة كما ورد تفسيرها هي الشرك، ويدخل فيها جميع الأهواء[(١)].

وقد حرر الإمام الشاطبي ضابطاً للفتنة فقال : « وضابط الفتنة ما صد عن طاعة الله »[(٢)].

ولا ريب أن من لم يبن عقيدته ومنهجه على أساس متين محكم فإنه يفتتن بالأهواء التي تتجارى بأصحابها، وأنه مع تغير الأحوال والعصور وكثرة الضلالات والمخالفات عن الشريعة الإسلامية

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٢٢٧)، وتفسير ابن عطية (٢ / ٣٣٨)، وانظر رسالة الفتنة وموقف المسلم منها(٢٩ - ٣٠).

(٢) الاعتصام (١ / ٤٣٨) الأستاذ سليم الهلالي .

ينخدع فيقع الشك في قلبه فيزيغ عن الحق ويقع في فتنة الأهواء، فإننا نعلم أن المكلف لا يسلم من الشرك والأهواء إلا إذا اعتصم بالشريعة الإسلامية.

٤- الوصف الرابع: كونها حجة قوية في مخاصمة أهل الباطل.

وبيان ذلك: أن أهل الباطل يتبعون المتشابهات ويحتجون بها على باطلهم كما صنع الزنادقة والحلولية والمشركون والنصارى والذين يستحلون المحرمات، وقد قام عليهم علماء السنة وكشفوا باطلهم وأقاموا عليهم الحجة التي لا يستطيع أحد أن يضعّفها، وقاعدة علماء السنة الاحتجاج بالمحكمات [(١)].

وعلى هذه الطريقة السنية سار المجددون في الإسلام، ومن قواعدهم في المجادلة بالتي هي أحسن:

١. الاحتجاج في تفسير القرآن بالسنة، ولذلك تميز أهل السنة بهذا الوصف الحميد، وحفظوا السنة وعملوا بها ودعوا إليها، وبنوا تفكيرهم ومنهجهم في الاستدلال بها كما

---

(١) انظر كيف يشبه اهل الزندقة والبدع على أنفسهم، وكيف يرد عليهم علماء السنة ويحتجون عليهم بالمحكمات، انظر نموذجاً في ذلك رسالة الإمام أحمد رحمه الله الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله. الطبعة السلفية ١٣٩٣ هـ، وانظر الاعتصام (١ / ٢٨١، ٣٠١، ٣١٢)، وكتاب كشف الشبهات للإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب.

صنع الإمام الشافعي ناصر السنة في كتابه الرسالة في أصول الفقه[١].

٢. أنهم أبرزوا للناس - للخصوم - المحكمات الأساسيات البينات التي استبانت واتضحت وعمل بها سلف هذه الأمة، وجعلوها حجة لهم، وحجة على خصومهم، طالبين في ذلك نجاتهم ونجاة الناس أجمعين.

٣. أنهم سلكوا في ذلك طريقاً سهلاً ميسوراً، يتسم بالوضوح ويتسم باليسر رغبة منهم في إظهار الحق بأيسر الطرق مراعاة لأحوال المكلفين وقدراتهم.

وإذا أراد القارئ أن يتوسع في التطبيقات فيمكنه أن يختار من الأمثلة والنماذج السابقة ويطبق عليها.

---

(١) انظر كتاب الرسالة للإمام الشافعي، والموافقات (٤ / ١٢ - ١٧).





٩ حوارات في قصص الأنبياء

انتشرت حوارات الأنبياء عليهم السلام في القرآن، واحتوىٰ عليها القصص القرآني الذي تضمن دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم ومحاورتهم في القضايا الرئيسية التي ما زالت البشرية حتىٰ اليوم تجادل فيها ألا وهي قضية التوحيد والعبادة، والسؤال عن الدين الحق، وبيان دين الإسلام الذي دعا إليه الرسل جميعًا، وطاعة الله في شرعه وحكمه، والإيمان بالبعث والحساب والغيب، وهي أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وأصول الأحكام في الواجبات والمحرمات وتحذير البشرية من الكفر والشرك والخرافة والفساد في الأرض، وتحريم الفواحش والظلم والبغي والقول علىٰ الله بغير علم.

وهذه أمثلة للمحكمات وليس للحصر تنبئ عن أهمية دراسة قصص الأنبياء عليهم السلام للاستفادة من منهج القرآن في عرضه وتكراره في سور كثيرة ومواضع كثيرة، بل في سور خاصة كسورة يوسف والقصص وإبراهيم عليهم السلام، ومريم عليها السلام. ونحن نورد بعض النماذج حول أهم القضايا التي تحتاجها

البشـرية اليوم لنتعرف علىٰ أقرب الطرق لهداية البشر بالأسلوب القـرآني الأمثـل والموعظـة الحسـنة والوضوح وحسـن الدلالة والبداية بالأهم فالأهم.

حوارات في التوحيد :[1]

- في شـأن حوار إبراهيم - عليه السـلام - لقومه في التوحيد قـال الله عزوجـل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[البقرة:٢٥٨].

- الحوار مع أهل الكتاب ودعوتهم إلىٰ التوحيد كما في قوله تعالـىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، وهـذا النص تضمـن ما دعا إليه الإسـلام من محكمـات في التوحيد والعبادة، وبيّـن معنىٰ الكلمة السواء، والدعوة الواحدة دعوة الحق.

(١) الحوار وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة كتاب فضيلة الشيخ الدكتور يحي زمزمي انظر [٧٥] وما بعدها ونوصي الدعاة وطلبة العلم وعامة المفكرين بالوقوف علىٰ هذا الكتاب والاستفادة منه في مجال الدعوة والحوار فقد جمع فيه المؤلف علماً نافعاً وبين فيه المنهج الدعوي الحواري من الكتاب والسنة وفيه تطبيقات كثيرة يمكن لطالب العلم أو صاحب الدعوة أن يتدرب عليها.

- ومثل ذلك حوار عيسىٰ - عليه السلام - مع النصارىٰ كما في الآية: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ وتحريم الشرك من المحكمات التي أجمعت عليها الرسالات السماوية.

- الحوار مع عيسىٰ عليه السلام حول هـذه القضية كما في قولـه تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وفي هذا السياق تبرأ عيسىٰ عليه السلام من الشرك وأمر بعبادة الله وحده.

- حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ودعوته إلىٰ التوحيد،وترك عبادة الأصنام:(﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ومن ثم محاجته لقومه كما في الآيات الآتية بعدها: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي



﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- إضافة إلىٰ دعوة الرسل لأقوامهم، وبدئهم بأمر التوحيد، وإصرارهم علىٰ كلمة واحدة هي ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ كما هو واضح قصصهم في سورة الأعراف وهود والشعراء وغيرها. ومن أبرز تلك الحوارات ما كان بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهكذا ينهىٰ إبراهيم عليه السلام قومه عن الإشراك بالله، ويحوارهم بالمحكمات والبينات.

- أما الأمثلة من السنة فمنها: حديث معاذ المشهور وفيه: « هل تدري ما حق الله علىٰ عباده؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله علىٰ عباده أن يعبدوه ولا يشركون به شيئًا..

الحديث»[١].

ومثله بدأ النبي ﷺ دعوته بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، خاصة في الحوار المذكور في سورة فصلت حيث قال المشركون كما ذكر الله عنهم ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فكان الرد عليهم بتوضيح القضية وبيان الأمر: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهكذا كان خطاب الوحي واحداً، يبين أن أول المحكمات عند الأنبياء اعبدوا الله واستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. وهي نفسها القضية التي بدأ بها يوسف عليه السلام في دعوة السجناء قبل أن يعبر لهم رؤياهم، أو يسترسل معهم في حديث، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[يوسف: ٤٠]

قال الشيخ السعدي[٢] «رحمه الله» في ذكر الفوائد من قصة

(١) البخاري كتاب العلم [١٢٨]، مسلم كتاب الإيمان [١/ ٥٨].
(٢) تفسير بن سعدي [٢/ ٤٤٨].



يوسف عليه السلام: (ومنها أن يبدأ بالأهم فالأهم، انه إذا سئل المفتي، وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه، أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة علىٰ نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا قدم لهما قبل تعبيرهما دعوتهما إلىٰ الله وحده لا شريك له). بل كان مما يأمر به النبي ﷺ عند إرساله للرسل وبعثه للكتب، أن يبدءوا بدعوة الناس إلىٰ هذه القضية العظيمة والمبدأ الأصيل، ومن ثم يتدرجوا منها إلىٰ اعترافهم. وهذه نقاط اتفاق - ثم رتب علىٰ ذلك ألوهيته وإبطال ما عداه من الآلهة والأرباب.

وقريب من هذا: الأسئلة المتعددة التي أمر الله بتوجيهها للمشركين لتقريرهم بإجابتها المتفق عليها. في إثبات الربوبية ومن ثم الانتقال إلىٰ إثبات الألوهية ونفي الولد والند والشريك، حيث قال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون:٩١]

فبعد تلك الأسئلة المحرجة، تجيء هذه الاعترافات الواضحة والأجوبة الصادقة البينة التي لا يمكن العدول عنها أو إنكارها، ثم تأتي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة التوحيد وبطلان ما يدعون الله من الولد والشريك، وفي اللحظة المناسبة بعد ذلك الجدل يجيء هذا التقرير: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾[المؤمنون:٩١].

ومن أدلة ذلك أيضا ما ذكره الله عز وجل في حوار إبراهيم لقومه حيث قال تعالىٰ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء:٧٧]

فهذه الأسئلة من إبراهيم عليه السلام فيها تقريرهم بقضايا متفق عليها، وهي بيان عجز الآلهة عن النفع والضر، ومن ثم يترتب عليها بيان بطلانها وعدم صلاحيتها بل عداوتها وهجرها، وبيان المستحق الوحيد للعبادة وهو رب العالمين.

ومن شواهد ذلك أيضا ما جاء في حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه في رواية الإمام مسلم عن أنس بن مالك، قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أن الله أرسلك، قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله، قال: فمن نصب هذا الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال : الله، قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: نعم... الحديث(١).

فهذا ضمام رضي الله عنه يسأل أسئلة معلومة الإجابة، ومحل اتفاق الجميع عليها ثم يرتب عليها أسئلة أخرىٰ، حتىٰ يصل إلىٰ مقصوده.

هذه الوقفات عند بعض قصص الأنبياء تكشف عن أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة من خلال خطاب البشر بخطاب الوحي الواحد الذي اشتملت عليه الرسالات السماوية ودعت فيه إلىٰ كلمة واحدة أساسها المحكم الأول ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم [٦٣].

١٠ حوارات الثقافات حول المحكمات

هذه نماذج تاريخية للحوار بين علماء الإسلام وغيرهم من الأمم الأخرىٰ نوردها كما جاءت في النصوص التاريخية قاصدين بذلك تأكيد أهمية المحكمات في إصلاح البشرية، ودورها في نجاح الحوار، بعيدا عن الانشغال بالجدل حول المسائل التفصيلية أو الاجتهادية.

كما قصدنا من وراء ذلك إطلاع القارئ وتذكير المتخصص بأهمية هذه المحكمات في التأثير علىٰ المحاورين، ورفع مستوىٰ المضامين التي احتوت عليها تلك الحوارات.

ولست بحاجة إلىٰ التنويه بتلك المحكمات التي تضمنتها تلك الحوارات، فأظن أن القارئ قد استوعب تلك الأمثلة للمحكمات بحيث إذا تأمل ما نورده من قصص وحوارات يستطيع أن يحدد تلك المحكمات التي اشتمل عليها ذلك الحوار. ويكفينا ما ذكرناه سابقًا من قصص الأنبياء عليهم السلام وحوارهم لمخالفيهم حتىٰ نعلم أثر المحكمات في هداية البشر، وتميّز القرآن في عرضها بالحكمة والموعظة الحسنة.



ونحاول أن نوجز هنا في التعليق والشرح رغبة منا في إتاحة الفرصة للقارئ للتأمل في النصوص وإجراء التطبيق من جهته على تلك النماذج واستنباط الفوائد والمشاركة معنا في تأمل وضوح المحكمات وبساطتها وسهولتها وقوة أثرها.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ومن ذلك كتابه إلى قيصر الروم: روى البيهقي عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي، وهو: هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشي، الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدي، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبه ولا ولداً، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله فأسلم تسلم، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤] فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك).

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي

عظيم الحبشة، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ، أما بعد:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسي بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسي من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعو إلىٰ الله وحده لا شريك له، والموالاة علىٰ طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله ﷺ، وإني أدعوك وجنودك إلىٰ الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ).

ولقد كانت الهجرة الأولىٰ للمسلمين إلىٰ الحبشة فآواهم ملك الحبشة وأحسن صحبتهم(١).

١- حوار جعفر رضي الله عنه في بلاط النجاشي:

وعز علىٰ المشركين أن يجد المهاجرون مأمنا لأنفسهم ودينهم، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلما - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلىٰ البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٦٠)، الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري (٣٩٢-٣٩٣).

المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا علىٰ النجاشي بإقصائهم، حضرا إلىٰ النجاشي، وقدما له الهدايا ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضَوَىٰ إلىٰ بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلم بهم، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلىٰ قومهم وبلادهم.

ولكن رأىٰ النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا. فأرسل إلىٰ المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا علىٰ الصدق كائنًا ما كان.

وبدأ الحوار في بلاط النجاشي الذي تمثل فيه ثلاث حضارات جاهلية العرب، وعلماء النصارىٰ، وعلماء المسلمين.

نص الحوار:

قال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم

تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب ـ وكان هو المتكلم عن المسلمين: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم،وقذف المحصنات،وأمرنا أن نعبد الله وحده،لا نشرك به شيئًا،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه علىٰ ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله تعالىٰ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلىٰ بلادك، واخترناك علىٰ من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.



فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرًا من: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾ فبكىٰ والله النجاشي حتىٰ اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتىٰ أخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو علىٰ رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسىٰ ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ففزعوا، ولكن أجمعوا علىٰ الصدق، كائنًا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البَتُول.

فأخذ النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: والله ما عدا عيسىٰ

ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نَخَرْتُم والله .

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي - والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة - من سَبَّكم غَرِم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لىٰ دَبْرًا من ذهب وإني آذيت رجلًا منكم - والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، وأسلم النجاشي رضي الله عنه(١).

قالت أم سلمة التي تروىٰ هذه القصة: «فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار».

وإذا عاد القارئ إلىٰ النص السابق وتأمل الكلمات التي تحتها خط علم أن هذه المحكمات كانت أصلاً وأساساً للبيان والدعوة والتعليم، وهي عاصمة من أمور الجاهلية التي سبق ذكرها في أول المحاورة وقد نجح هذا الحوار نجاحاً باهراً انتصر فيه

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٣٥٨-٣٥٩-٣٦٠-٣٦١).

جعفر رضي الله عنه وأصحابه للحق وبلغو أحسن بلاغ، ولنتأمل الأوصاف السابقة للمحكمات التي ذكرناه سابقاً وسيجد القارئ في هذا النص تطبيقات جلية وإشارات بليغة.

٢- حوار في مسجد رسول الله ﷺ :

وفد نجران: [نجران] بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين المسيحية قديماً وقد دخل كثير من أهلها في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ، ثم انتشر الإسلام فيها بعد ذلك، وهي الآن منطقة من مناطق الجنوبية في المملكة العربية السعودية.

وكانت وفادة أهل نجران سنة[٩]هـ، وقوام الوفد ستون رجلاً منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران. أحدهمْ: العَاقِب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثاني: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيْهَم أو شُرَحْبيل. والثالث: الأسْقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلىٰ الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسي عليه السلام، فمكث رسول اللّه ﷺ يومه ذلك حتىٰ نزل عليه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران:٥٩: ٦١].

ولما أصبح رسول اللّه ﷺ أخبرهم بقوله في عيسي ابن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال في عيسي. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسي، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول اللّه ﷺ إلىٰ المباهلة، وأقبل مشتملاً علىٰ الحسن والحسين في خَمِيل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل، فو اللّه لئن كان نبياً فلاَعَنَنَا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقي علىٰ وجه الأرض منا شعرة ولا ظُفْر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم علىٰ تحكيم رسول اللّه ﷺ في أمرهم، وطلبوا منه أن يبعث

عليهم رجلاً أميناً يحكم بينهم بكتاب الله، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلىٰ نجران، وأن النبي ﷺ بعث إليهم عليّا ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين.

وفي صدر سورة آل عمران بيان للمحكمات في التوحيد وفي أول سياقها ورد التنويه بالمحكمات في قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] وهذه السورة تعتبر تطبيقاً لهذا المنهج، وقد ورد في أولها أكثر من مائة آية في المحاورة في التوحيد والدعوة بالتي هي أحسن ومحاجة النصارىٰ في تقرير التوحيد والإيمان بالرسل جميعاً، وهذا المنهج مبنىٰ علىٰ خطاب واحد عند الأنبياء جميعاً تضمنته رسائلهم التي أرسلهم الله بها وهو دعوة واحدة بالحسنىٰ إلىٰ أهم أمر تحتاجه البشرية ألا وهو الإيمان بالمحكم الأول: وهو توحيد الله وطاعته وعبادته.

والمحكم الثاني : وهو الإيمان برسله جميعاً وعدم التفريق بينهم.



وما زالت البشرية اليوم تجادل في هذين المحكمين الرئيسين، وهي مدعوة إلىٰ الإيمان بهما، في رسالة نبينا محمد ﷺ، كما قد دعاها الرسل عليهم السلام من قبل.

إن أسلوب القرآن الحكيم في الحوار وكذلك أسلوب رسول الإسلام محمد بن عبدالله عليه السلام الذي هو تطبيق لهذا المنهج قد نجح نجاحاً باهراً في بيان الحق لأنه اعتمد علىٰ بيان المحكمات البينات وقدمها للناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

ألم تر إلىٰ هذا الوفد الذي دخل علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام وهو يقول «أسلمنا» والنبي عليه الصلاة والسلام يصحح لهم، ويبين لهم حقيقة الإسلام ويعرض عليهم الحق بأسلوب حسن. ولقد بدأ التأثير عليهم تدريجياً: ومن ذلك خوفهم من المباهلة لما وقع في نفوسهم من العلم بقوة الحجة التي خاطبهم بها رسول الإسلام، ثم ظهر عليهم التأثر لما اطمئنوا إلىٰ عدل الرسول عليه الصلاة والسلام ورحمته فطلبوا منه أن يبعث معهم أميناً يحكم بينهم بكتاب الله، ولا شك أن هذا من فوائد الحوار، ووضوحه، وسلامة النية فيه، وقد كان لذلك أثر عظيم في دخولهم للإسلام بعد ذلك،وكل هذه الخطوات والتدرج وما ترتب عليها من نتائج هي ثمرة إيجابية لذلك الحوار الذي كان في مدينة رسول الله ﷺ[1].

(١) زاد المعاد، تفسير بن كثير.

٣- وفد ثقيف في مسجد رسول الله ﷺ :

كانـت وفادتهـم في رمضان سـنة (٩) هـ، وقصة إسـلامهم أن رئيسـهم عـروة بن مسـعود الثقفي جاء إلىٰ رسـول اللّـه ﷺ بعد مرجعـه من غزوة الطائف في ذي القعدة سـنة (٨) هـ قبل أن يصل إلىٰ المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلىٰ قومه، ودعاهم إلىٰ الإسلام ـ وهـو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سـيدا مطاعـاً في قومه، وكان أحب إليهم من أبكارهم ـ فلما دعاهم إلىٰ الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتىٰ قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشـهراً، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنـه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب ـ الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا ـ فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلىٰ رسول اللّه ﷺ، فكلمـوا عَبْد ياليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبي، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة. وقال: لسـت فاعلاً حتىٰ ترسـلوا معي رجالاً، فبعثوا معه رجلين مـن الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان أحدثهم سـناً. فلما قدموا علىٰ رسـول اللّه ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسـجد، لكي يسـمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلىٰ رسول اللّه ﷺ، وهو يدعوهم إلىٰ الإسلام، حتىٰ سـأل رئيسـهم أن يكتـب لهم رسـول اللّـه ﷺ قضية صلح

بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبي رسول اللّه ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول اللّه ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشترطوا أن يتولىٰ رسول اللّه ﷺ هدم «اللات» وهو صنم لهم يعبدونه وأن ثقيفًا لا يهدمونها بأيديهم أبداً، فقبل ذلك، وكتب لهم كتابًا.

نص الحوار : ذكر خبرهم ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه زاد المعاد قال: « وأنزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف المسجد، وبنىٰ لهم خيامًا لكي يسمعوا القرآن، ويَروا الناس إذا صلوا، وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لا يذكرُ نفسه، فلما سمعه وفد ثقيف قالوا: يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله، ولا يشهد به في خطبته، فلما بلغه قولهم، قال: فإني أول من شهد أني رسول الله. وكانوا يغدون إلىٰ رسول الله ﷺ كل يوم، ويخلِّفون عثمان بن أبي العاص علىٰ رحالهم لأنه أصغرهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه قالوا بالهاجرة، عمد إلىٰ رسول الله ﷺ، فسأله عن الدين، واستقرأه القرآن، فاختلف إليه عثمان مرارًا حتىٰ فَقُه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا، عَمد إلىٰ أبي بكر، وكان يكتم ذلك

مـن أصحابه، فأعجب ذلك رسـول الله ﷺ وأحبه، فمكث الوفد يختلفون إلىٰ رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلىٰ الإسلام، فأسلموا، فقال كنانة بن عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتىٰ نرجع إلىٰ قومنا؟ قال: «نعم، إن أنتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلا فلا قضية، ولا صُلـح بيني وبينكم» قال: أفرأيت الزنا، فإنا قوم نغترب، ولا بد لنا منـه؟ قال: «هو عليكم حرام؛ فـإن الله عزوجل يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسـراء:٣٢]، قالـوا: أفرأيت الربا؛ فإنه أموالنا كلها؟ قال: «لكم رؤوس أموالكم؛ إن الله تعالىٰ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٧٨]» قالوا: أفرأيت الخمر؛ فإنه عصير أرضنا لا بد لنا منها؟ قـال: «إن الله قـد حرمهـا، وقـرأ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[المائـدة:٩٠]» فارتفـع القوم، فخلا بعضهم ببعض، فقالوا: ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يومًا كيوم مكة، انطلقوا نُكاتبه علىٰ ما سألناه، فأتوا رسول الله ﷺ فقالـوا: نعم لك ما سـألت، أرأيت الرَّبَّة مـاذا نصنع فيها؟ قـال: «اهدموهـا» قالوا: هيهـات؛ لو تعلم الربة أنـك تريد هدمها لقتلـت أهلها، فقال: عمر بن الخطاب: ويحـك يا ابن عبد ياليل، مـا أجهلك، إنما الربة حجر، فقالـوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب،

وقالوا لرسـول الله ﷺ: تَوَلَّ أنـت هدمها، فأما نحن فإنا لا نهدمها أبدًا. قال: «فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها» فكاتبوه».

وأمـر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي ؛ لأنه كان أحرصهم علىٰ التفقـه في الإسـلام وتعلم الديـن والقرآن. وذلـك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلىٰ رسول اللّه ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهـم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجـرة عمد عثمان بن أبي العاص إلىٰ رسول اللّه ﷺ فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائمـًا عمد إلىٰ أبي بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم النـاس بركة لقومه في زمن الـردة، فإن ثقيفـًا لما عزمت علىٰ الردة قال لهم: يا معشر ثقيف، كنتم آخر الناس إسلامـًا، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة، وثبتوا علىٰ الإسلام)[1].

٤ - حوار بين عمرو بن العاص وملك عمان جيفر وأخيه عياد ابني الجلندي :

قـال عمـرو فخرجت حتـىٰ انتهيت إلـىٰ عمان، فلمـا قدمتها عمدت إلـىٰ عياد وكان أحلـم الرجلين، وأسـهلهما خلقـًا فقلت إني رسـول رسـول الله ﷺ إليك وإلىٰ أخيك، فقال: أخي المقدم

---

(١) وهذه العلمانية الجاهلية التي مثلها هذا الوفد وفاوض الرسول عليه السلام حولها لعله أن يقرهم عليها هي صورة مماثلة لصور العلمانية المعاصرة التي ما زال الكثيرون يقرونها بزعم المصلحة، وموقف نبي الإسلام واضح جلي في الوقوف مع الحق ومبادئه وعدم إقرارها.



علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتىٰ يقرأ كتابك ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت أدعو إلىٰ الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة قلت مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه لو كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا علىٰ مثل رأيه هداني الله للإسلام. قال: فمتىٰ تبعته؟ قلت قريباً. فسألني أين كان إسلامك؟ قلت عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال :وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت نعم .قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت ما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرىٰ هرقل علم بإسلام النجاشي. قلت بلىٰ، قال: فبأي شيء علمت ذلك؟قلت كان النجاشي يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا و الله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً، ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً؟ قال هرقل رجل رغب في دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت والله صدقتك. قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهىٰ عنه؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهىٰ عن

معصيتـه، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهـىٰ عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعـن الخمر، وعن عبادة الحجـر والوثن والصليب. قال: ما أحســن هـذا الذي يدعو إليـه، لو كان أخـي يتابعني عليه لركبنـا حتـىٰ نؤمـن بمحمـد ﷺ ونصدق بـه، ولكـن أخي أضن بملكـه مـن أن يدعه ويصير ذنبـًا. قلت إنه إن أسـلم ملكه رسـول الله ﷺ علـىٰ قومه. فأخذ الصدقة مـن غنيهم فردها علىٰ فقيرهم، قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقـات في الأمـوال حتىٰ انتهيت إلـىٰ الإبل. قال: يا عمرو وتؤخذ منا سـوائم مواشـينا التي ترعىٰ الشجر وترد المياه؟ فقلت نعم، فقال: و الله ما أرىٰ قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعـون لهـذا. قـال: فمكثت ببابـه أيامـًا. وهو يصل إلـىٰ أخيه فيخـبره كل خبري، ثم إنه دعاني يومـًا فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي فقال: دعوه، فأرسـلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلـس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتـك، فدفعت إليه الكتاب مختومـًا، ففض خاتمه، وقـرأ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آخـره ثم دفعه إلىٰ أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرني عـن قريش كيف صنعت؟ فقلت تبعـوه. إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت الناس قد رغبوا في الإسلام واختـاروه علىٰ غيره، وعرفـوه بعقولهم مع هـدي الله إياهم أنهم

كانـوا في ضـلال، فمـا أعلـم أحـداً بقي غيـرك في هـذه الحرجة، فأجاب إلىٰ الإسلام هو وأخوه جميعـًا، وصدقا النبي ﷺ، وخليا بينـي وبين الصدقة، وبين الحكم فيمـا بينهم، وكانا لي عونـًا علىٰ من خالفني. إهـ

وإذا تأملنـا في هـذا الحـوار البديـع البليغ الـذي تضمن بعض المحكمات التي بيّن فيها الصحابي الجليل دعوة رسول الله لأهل الكتابيـن علمنا أن هذا الأسـلوب الناجح في بيـان الحق والتدرج في عرضـه مـن خـلال الواقـع التاريخي التـي كانت تشـهده تلك المرحلة، والاسـتفادة من أخبارها وقصصها مع الوضوح في بيان المحكمات بأسـلوب سهل ميسر وعبارة حكيمة محببة للنفوس، حتىٰ قال الطرف الآخر «ما أحسن ما يدعو إليه».

١١ المحكمات وأثرها في وحدة الأمة

إن بيان منزلة المحكمات في الشريعة يكشف لنا عن أثرها العظيم في تحقيق وحدة المسلمين. ونتعرف هنا على منزلتها من خلال تلك الأوصاف التي وصفها بها أهل العلم، ومن تلك الأوصاف قولهم:

إن المحكمات هي أصل الدين، وهي عماد الإسلام، والمقصود أن الشريعة تقوم على تلك المحكمات، وكلام المفسرين هذا يماثله كلام الأصوليين من أن الشريعة تقوم على حفظ الضروريات الخمس، فالنصوص المحكمة الواردة في حفظ الضروريات عليها مدار الشريعة، ومحفوظة في جميع الرسالات.

ولهذا قال الإمام الشاطبي في الموافقات: إن الضروريات محفوظة في كل ملة [١]، وكذا قال سعيد بن جبير في تفسير معنى المحكمات الوارد ذكرها في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال: «لأنهن مكتوبات في

(١) الموافقات (٢/ ٢٥) قال رحمه الله: قسم الضروريات مراعى في كل ملة بحيث لم تختلف فيه الملل كما اختلفت في الفروع فهي أصول الدين وقواعد الشريعة وكليات الملة وانظر (٢/ ٤١٠).



جميع الكتب المنزلة»[1].

وقال مقاتل بن حيان: «لأنه ليس من أهل دين إلا يرضىٰ بهن»[2] أي من أهل الإسلام.

وإذا كانت كذلك يصدق عليها ما قال ابن زيد: هُنّ جماع الكتاب[3]، وسماها ابن كثير وشيخ الإسلام «الدين المشترك عند الأنبياء»[4].

ويؤكد هذا قول القرطبي: «فالمحكم أبداً أصل ترد إليه الفروع».

وهي كذلك أساس متين لوحدة المجتمع صغيراً كان أم كبيراً، كما أنها جامعة للمسلمين في كل زمان ومكان علىٰ اختلاف ألوانهم وأجناسهم إذا صدقوا في العمل بها وإتباعها، وبها قوام المجتمع الإسلامي، ولهذا ربط الله بها الفلاح والصلاح وحذر المسلمين من التفرق عنها.

ولأجل أهميتهما فقد حرص الكفار والمشركون علىٰ أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١ / ٣٥٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١ / ٣٥٣).
(٣) سيأتي عرض الأدلة علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤ / ١١٠)، ولعل الله ييسر أن نفرد بحثاً لبيان المشترك بين شرائع الأنبياء عليهم السلام.

يفرقوا المسلمين عن دستورهم الذي هو الكتاب والسنة لأنهم يعلمون أن المسلمين إذا تفرقوا عن المحكمات في الكتاب والسنة فإنهم يضلون، ويضيّعون مجتمعاتهم، لأنه لا يمكن حفظ المجتمع إلا بحفظ الضروريات الخمس المعروفة ولا يمكن أن يكون المسلمون أمة واحدة على عقيدة صحيحة وشريعة واحدة إلا باتباع المحكمات، ولم ينحرف الكفار والمشركون إلا بسبب تفرقهم عنها من بعد ما جاءهم العلم .

ولا شك أن المحكمات البينات هي الأصل والعماد الذي بُنيت عليها مقاصد الشرائع الإسلامية التي أنزلها الله سبحانه على أنبيائه عليهم السلام، وعليها اجتمعت الكتب المنزلة[1]، فإذا كانت هذه المحكمات هي أساس الوحدة بين الأنبياء وأتباعهم من المسلمين فهي كذلك الأساس الذي تقوم عليه الوحدة الإسلامية بين المسلمين في هذا العصر، وإليك بيان ذلك إجمالاً : لقد تضمن القرآن الكريم الأسس المشتركة بين الشرائع الإسلامية السابقة ونوه بها وهو عندنا مصدر أساسي ثابت وبهذا

---

(١) فما من أصل في الشرائع السابقة إلا تضمنته الشريعة الإسلامية، من ذلك حفظ الدين، النفس والعقل، والمال، والعرض والأخلاق، وإذا قيل كيف عرفتم ذلك، وقد بدل أهل الكتب السماوية كتبهم قلت : عرفنا ذلك من القرآن الذي نص على ما ورد في التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وغير ذلك من قصص الأنبياء الذي اشتمل على المحكمات في دعوتهم وطريقهم الحسنى، وهو ما أثبتنا منه جملاً في هذا الكتاب والحمد لله.



نستطيع أن نؤيد ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه وعليه إجماع الصحابة رضي الله عنهم وأئمة العلم من المفسرين و الفقهاء الأصوليين كما بيناه سابقا وهذه نماذج لهذه المحكمات في مجال العقائد والعبادات والمعاملات التي تؤكد هذا المعنىٰ وتقويه فمن ذلك :

التوحيد، وهو المحكم الأول ودل علىٰ ذلك آيات كثيرة منها :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل: من الآية:٣٦]

النهي عن الشرك :﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾[الحج: من الآية:٢٦]

وقول يوسف﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾[يوسف: من الآية:٣٨]

الأمر بالصلاة: في شأن موسىٰ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[طه:١٤]

الأمر بالصيام:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]

الأمر بالحج:﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج:٢٦]

وفي تحريم قتل النفس: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: من الآية٤٥]

وفي تحريم الظلم: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران: من الآية:٥٧] ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ابراهيم: من الآية:٢٢]،وقصص الأنبياء مشتملة علىٰ تحريم الظلم والنهي بجميع أنواعه

وفي تحريم الربا : ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [النساء: من الآية:١٦١]

وفي تحريم الزنىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]

وفي جريمة اللواط (أهلك الله قوم لوط) : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [هود:٨٢]

وفي تحريم أكل أموال الناس بالباطل : ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: من الآية١٦١]

وفي تحريم أمور الجاهلية وأخلاقها المذمومة :

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[الأنفال:٣٥]

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة:٣٧]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير:٨ :٩] وقال رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام كما في خطبة حجة الوداع «ألا كل أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي»[1] وهو عام في تحريم أمر الجاهلية من العصبيات والنعرات والتفاخر بالآباء، والشعوبية والقوميات وسائر المذاهب الهدامة من الخرافة، وسنؤكد هذا المعنىٰ الذي هو تطبيق لبيان المحكمات وأثر العمل والالتزام بها في بناء وحدة الأمة بهذه الآيات الواردة في عدة سياقات قرآنية تؤكد علىٰ الاجتماع والاعتصام بالمحكمات وتبين أنها سبيل القوة والفلاح وإليك هذه الأدلة:

الدليل الأول:

قال الله تعالىٰ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[الشورىٰ: ١٣ - ١٤].

---

(١) مسلم حديث جابر في صفة حج النبي عليه الصلاة والسلام.

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى لهذه الأمة ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم من الرسل وهم إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وفي الحديث «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»[1]، أي القدر المشترك بينها هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2] والذي اخْتُصَّ به كل نبي إنما هو في بعض الشرائع الجزئية، أما المحكمات والأساسيات والضروريات فهي الدين الواحد عند جميع الأنبياء عليهم السلام «ولهذا قال الله تعالىٰ ههنا: ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ أي أوصىٰ الله تعالىٰ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف وقوله عز وجل: ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح أحاديث الأنبياء (٦ / ٤٧٨) أي أبوهم واحد وأمهاتهم شتىٰ.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤ / ١١٠).

من التوحيد.

قال الإمام الشوكاني في تفسيره: « إن الخطاب في قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ لأمة محمد ﷺ أي بيّن وأوضح لكم من الدين ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

من التوحيد ودين الإسلام وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل وتوافقت عليها الكتب ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن وشرائع الإسلام والبراءة من الشرك.

الدليل الثاني:

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير هذه الآيات «وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به وعهده الذي عَهِدَه إليكم في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع علىٰ كلمة الحق والتسليم لأمر الله...

« وَلاَ تَفَرَّقُواْ: أي ولا تفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع علىٰ طاعته وطاعة رسوله

ﷺ والانتماء إلىٰ أمره»[١].

فأهل الأهواء والبدع تركوا السبيل الواحد والصراط المستقيم الذي يؤدي إلىٰ وحدة الأمة وهو لزوم المحكمات وترك المتشابهات ولذلك لم يتحقق لهم الاجتماع علىٰ السنة، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد ذكر بعض المحكمات في سورة الأنعام[٢] ثم جاء التوجيه الرباني بلزوم تلك المحكمات لأنها هي الصراط المستقيم.

قال الإمام الشاطبي: «فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع»[٣].

ولم يُفرّق الأمة إلاَّ اجتماع طوائف منها علىٰ المحدثات، ووقوعها في التشريع من دون الله، فاتخذت طرقاً مخالفة للشرع،

(١) انظر ما سبق ص (١٠) نماذج تطبيقية للمحكمات.
(٢) انظر ما سبق في الحديث عن آيات سورة الأنعام في النماذج التطبيقية.
(٣) الاعتصام (١ / ٧٦)



وتركت المحكمات البينات، فوقعت في الذم الذي ورد في سورة آل عمران).

ولـذا فإن الوحدة لا تتحقـق إلا باجتماع علىٰ الكتاب السنة، وتـرك تشريع المحدثـات والبـدع، ولـزوم الصراط الـذي دعا الله سبحانه إليـه وهـو الصـراط المستقيم ولا نتصـور أن يتحد المسـلمون إذا كان دستورهم الكتاب والسنة ولن يعتصموا بحبل الله وشـريعته إلا بتحديد المرجعية الوحيـدة وهي الاجتماع علىٰ الكتاب والاجتماع علىٰ السنة ولهذا تميّز أهل السنة بهذا الوصف وهو الاعتصام بالمحكمات والحذر من المتشابهات.

الدليل الثالث:

قال تعالـىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[الروم: ٣٠ - ٣٢].

قال ابن كثير: «فسـدد وجهكَ واستمرَّ علىٰ الدين الذي شرعه الله لـك من الحنيفيـة ملة إبراهيم الذي هـداك الله لها وكمّلها لك غايـة الكمال وأنت مع ذلـك لازم فطرتك السـليمة التي فطر الله

الخلق عليها، فإنه فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره.. »[١]

وقال ابن جرير رحمه الله: «ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم» قال: معناه من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أحزاباً... « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ: كل طائفة وفرقة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق فأحدثوا البدع التي أحدثوا...»[٢].

والمعنىٰ كما ذكر ابن كثير: أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدَّلوه وغيَّروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، فلا تكونوا مثلهم، بل كونوا علىٰ ما كان عليه.

[وكذلك وقع في هذه الأمة فاختلفوا فيما بينهم علىٰ نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم الفرقة الناجية «أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية مَنْ هم؟ فقال: «ما كان علىٰ ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٤٣).

(٢) جامع البيان (٢١/ ٤٢ - ٤٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٤٧)، والاعتصام للشاطبي (٢/ ٦٩٨ - ٦٩٩، ٧٧٢)، وصحيح الترمذي برقم (٢٦٤١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاصر، وهو حديث حسن.

وفي هذه الآيات تنبيه إلىٰ طريق الوحدة الإسلامية وهو طريق واحد لا يختلف من عصر إلىٰ عصر، وقد كان الأنبياء عليهم السلام هم أقوم الناس به، وكذلك أتباعهم الصادقون ولهذا مَنَّ الله علىٰ عباده ببيان المحكمات التي هي أساس هذا الطريق المستقيم، وأولها التوحيد وأصول الشرائع وهي ما وصىٰ به الرسل عليهم السلام وأممهم من قبل، وذلك أن التوحيد وأصول الشرائع لم يختلف فيها الرسل عليهم السلام وتوافقت عليها الكتب المنزلة كما بينا.

فكيف يجوز للمسلمين اليوم أن يقلدوا الكفار في دساتيرهم ويتفرقوا عن دستورهم كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

وهذا الذي أوحىٰ الله به إلىٰ رسوله محمد عليه الصلاة والسلام وهو الذي وصىٰ به نوحاً وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وأمرهم جميعاً أن يقيموا الدين وأن لا يتفرقوا فيه، وأعلمهم أن المشركين كبر عليهم أن يُدْعوا إلىٰ التوحيد والله يهدي من ينيب ويرجع إلىٰ طاعته ويُقبل علىٰ عبادته، وأما المعرضون فقد ضلوا وأضلوا بسبب زيغهم وإعراضهم وتفرقهم عن المحكمات من بعد ما جاءهم العلم، استبدلوا الدساتير العلمانية بالكتاب

والسنة، ولذلك وصىٰ الله المسلمين أتباع محمد ﷺ بلزوم هذا العلم البيّن والاجتماع عليه والحذر من المشركين وهديهم وشرائعهم وقوانينهم وأحكامهم، وهذا هو الطريق الوحيد لجمع كلمة المسلمين في كل مكان وزمان، والجميع مطالب بحفظها والعمل بها حتىٰ الظالم منهم لنفسه بالمعاصي أو المقتصد أو السابق بالخيرات. فالوجب علىٰ الجميع المحافظة علىٰ إقامة الدين والحذر من التفرق فيه بسبب أهواء المشركين والضالين قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢] وقدم الله الظالم لنفسه علىٰ المقتصد والسابق بالخيرات مع أنهم أعلىٰ رتبة منه وأيضـًا للتنبيه وترك الشطط والغلو في الحكم عليهم في الدنيا أو الانحراف في التعامل معهم.

ويشمل ذلك أتباع كل رسول في زمانه، كأتباع نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وسائر الأنبياء عليهم السلام، فإنه لم يتحقق لهم الاجتماع علىٰ وحدة الكلمة إلاَّ باتباع تلك الأوامر القرآنية التي حددت الطريق إلىٰ وحدة الأمة المسلمة في كل عصر، وكذلك نقول في حال المسلمين اليوم في جميع أقطار الدنيا، فإنه لا يتصور

زوال الخلاف والشتات الذي وقع بينهم إلا باتباع تلك الأوامر القرآنية وأول ذلك إقامة التوحيد و تحديد مرجعية الدستور والتشريع والحكم والتحاكم لتكون هي الكتاب والسنة وفيهما تتحقق الوحدة الإسلامية والاعتصام بالإسلام.

الدليل الرابع:

روى الترمذي وصححه وأبو داود وغيرهما عن العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم ير اختلافاً كثيراً. وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ»[1].

ومحدثات الأمور هي البدع، وسبب الوقوع في البدع هو اتباع المتشابهات وترك المحكمات، وهكذا يقع الخلاف وتزول الوحدة بسبب هذه المحدثات.

(١) أخرجه الترمذي بهذا اللفظ في كتاب العلم (٥/ ٤٤ - ح ٢٦٧٦)، وأبو داود في كتاب السنة (٥/ ١٣ - ح ٤٦٠٧).

الدليل الخامس :

حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في الصحيحين :

أنه ﷺ قال : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتىٰ إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئُلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[(١)].

والجهل سبب التفرق، وسبب الإعراض عن العلم، وهذا كله مؤدٍ إلىٰ الاختلاف، لأن الرءوس الجهال يفتون بغير علم، أي بجهل، يَدعُون المحكمات ويفتون بما يخالفها مما وقع لهم الاشتباه فيه، بسبب قبض العلماء، ولا ريب أن هذا من أعظم الأسباب التي تؤدي إلىٰ الافتراق وترك الاجتماع علىٰ الكتاب والسنة.

الدليل السادس :

حديث عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : «فإذا رأيت الذين

(١) صحيح البخاري مع الفتح (١/ ٢٣٤)، وصحيح مسلم (١٦/ ٢٢٣ - ٢٢٤).

يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىٰ الله فاحذروهم»[1]

قال الإمام الشـاطبي : «فإذاً الذم إنما لحق مَن جادل فيه – أي القـرآن – بترك المحكم – وهو أم الكتاب ومعظمه – والتمسـك بمتشابهه»[2].

وفي الختام يتضـح بأن هذه الأوامر الواردة في الكتاب والسـنة هي أسـاس الوحدة بين المسـلمين، وتتصف – كما سلف – بأنها بينات واضحـات لا التباس فيها، وهي من الأمور الضرورية التي جعل الله سـبحانه الطريق إلىٰ فهمها والعمل بها ميسـوراً وسـهلاً لمن أراد الله به الخير والهداية.

وكمـا أن هذه المحكمات التي لم تختلف فيها شـرائع الأنبياء عليهم السـلام هي أسـاس وحدة الأمة فهي كذلك أساس لحفظ المجتمـع سـواء كان صغيـراً أو كبيـراً قديمـاً أو حديثـاً وهذا ما سنبينه في الفقرة التالية بعون الله وتوفيقه.

---

(١) قبض العلماء يكون بموتهم فيقل علماء السنة ويكثر علماء البدعة فتكثر الأهواء فينتشر الخلاف.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٠٩).

الاعتصام (١/ ٧١) ثم ذكر أوصاف الفرق وأهل الأهواء ومنها هذا الوصف المذكور انظر (١ / ٧٠) وما بعده.

١٢ أثر المحكمات في حفظ المجتمع

إن المحكمات كما بينّا سابقاً هي أساس الشريعة، ومعظم الكتاب، و بها تتحقق مصالح المسلمين ويحفظ مجتمعهم، ذلك أن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية...[١]

والمجتمع كما هو معلوم يتكون من أفراد، ومن مقاصدهم حفظ دينهم ونفوسهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم[٢]، وقد جاءت الشريعة الإسلامية بحفظ هذه المقاصد، وتحقيق مصالح المكلفين فلا غرابة أن تحيط هذه المقاصد بالفرد والمجتمع من كل جانب لا فرق بين حالة الفرد المادية، ولا منزلته العلمية، وكذلك لا فرق بين حالة المجتمع الرعوية أو الزراعية أو الصناعية لذا فالمحكمات يعلمها العامة كما يعلمها الخاصة والجميع مطالب بحفظها والعمل بها حتىٰ الظالم منهم لنفسه بالمعاصي أو المقتصد

---

(١) انظر الموافقات (٢/ ٣٧) وفيه بيان أن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية بحيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرىٰ لا من حيث أهواء النفوس.

(٢) حفظ الضروريات الخمس مجمع عليها بين علماء الإسلام كما بينا ذلك سابقاً ونأخذه هنا أصلاً ثم نبني عليه، وانظر الموافقات (٢/ ٨)، وانظر الأدلة مفصلة علىٰ إثبات المقاصد الشرعية في كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية (١٠٥ - ١٢١).

أو السابق بالخيرات فالوجب علىٰ الجميع المحافظة علىٰ إقامة الدين والحذر من التفرق فيه بسبب أهواء المشركين والضالين ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢] وقدم الله الظالم لنفسه علىٰ المقتصد والسابق بالخيرات مع أنهم أعلىٰ منه لأنهم الأكثر من أهل الإسلام وأيضاً للتنبيه لعدم الشطط في الحكم عليهم في الدنيا أو الانحراف في التعامل معهم كما أشرنا لذلك سابقاً، ومن وسطية هذا الدين ما وردت الإشارة إليه في هذه الآية من الاصطفاء، وفيه تنبيه لمعرفة حق كل مسلم وما يجب عليه في إقامة الدين وتحقيق مهمة الاصطفاء والتكريم.

ويترتب علىٰ حفظ هذه المقاصد كما هو معلوم كف الفرد والمجتمع عن الفساد في الأرض الذي يعيشه الكفار والمشركون، وتمييز هذه الأمة بمنهجها الرباني، الذي يحرم الشرك و الردة، ويحرم ترك الصلاة والزكاة والصيام والحج - لمن قدر علي أداء التكاليف وكذا تحريم الاعتداء علىٰ النفوس والأعراض والعقول ومنع استحلال المحرمات و الأفكار الهدامة والبدع والضلالات وجميع الأهواء والعقائد والملل والمذاهب المنحرفة التي تنتجها البشرية.

ويحسن أن نؤكد في هذا الموضع على أمرين :

- **الأول** : أن تحريم هذه الأمور إنما هو لحفظ مقاصد الشريعة تماماً كما هو الشأن في إقامة الواجبات وهو في نفس الوقت يحقق حفظ المجتمع من جميع جوانبه العقدية وفي مجال العبادات والمعاملات وأمور المجتمع الخاصة والعامة ويدخل في ذلك حفظ حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي و حفظ للمجتمع من جميع جوانبه.
- **الثاني** : أن تحقيق هذه المقاصد يجب أن يشارك فيه العامة والخاصة، أي جميع المكلفين، لأن هذه المقاصد مبنية على العلم العام الذي لا يسع أحداً جهله.

ولا ريب أن هذا من سماحة الإسلام ويُسر شريعته فهو دين عام للناس أجمعين على جميع مستوياتهم وبه تحفظ مجتمعاتهم، وتتحقق مصالحهم الدينية والدنيوية[1].

قال الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه الرسالة : قال لي قائل: ما العلم ؟ وما يجب على الناس في العلم ؟ فقلت له : العلم علمان: علم عامة لا يسع أحداً - غير مغلوب على عقله - جهله،

(١) نلاحظ هنا أن المجددين في الإسلام يبنون منهجهم في الإصلاح ودعوة المكلفين على هذه الأسس البينات ثم تربيتهم عليها وعلى المشاركة في نشرها والدفاع عنها

وقال: ومثل ماذا ؟ قلتُ : مثل الصلوات الخمس وأن لله علىٰ الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوه، وزكاة في أموالهم، وأنه حرّم عليهم الزنا، والقتل، والسرقة، والخمر، وما كان في معنىٰ هذا، مما كُلّف العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم وأن يكفوا عنه ما حرَّم عليهم منه.

وهذا الصنف كله من العلم الموجود نصاً في كتاب الله وموجوداً عاماً عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عن من مضىٰ من عوامهم، يحكونه عن رسول الله ﷺ ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم، وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع.

قال : فما الوجه الثاني ؟ قلت له : ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة، وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة لا أخبار العامة وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً... قال الشافعي :» وهذه درجة من العلم ليس تبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة...«[1].

ومقصود **الإمام الشافعي** : أن أساسيات الدين مثل : أركان

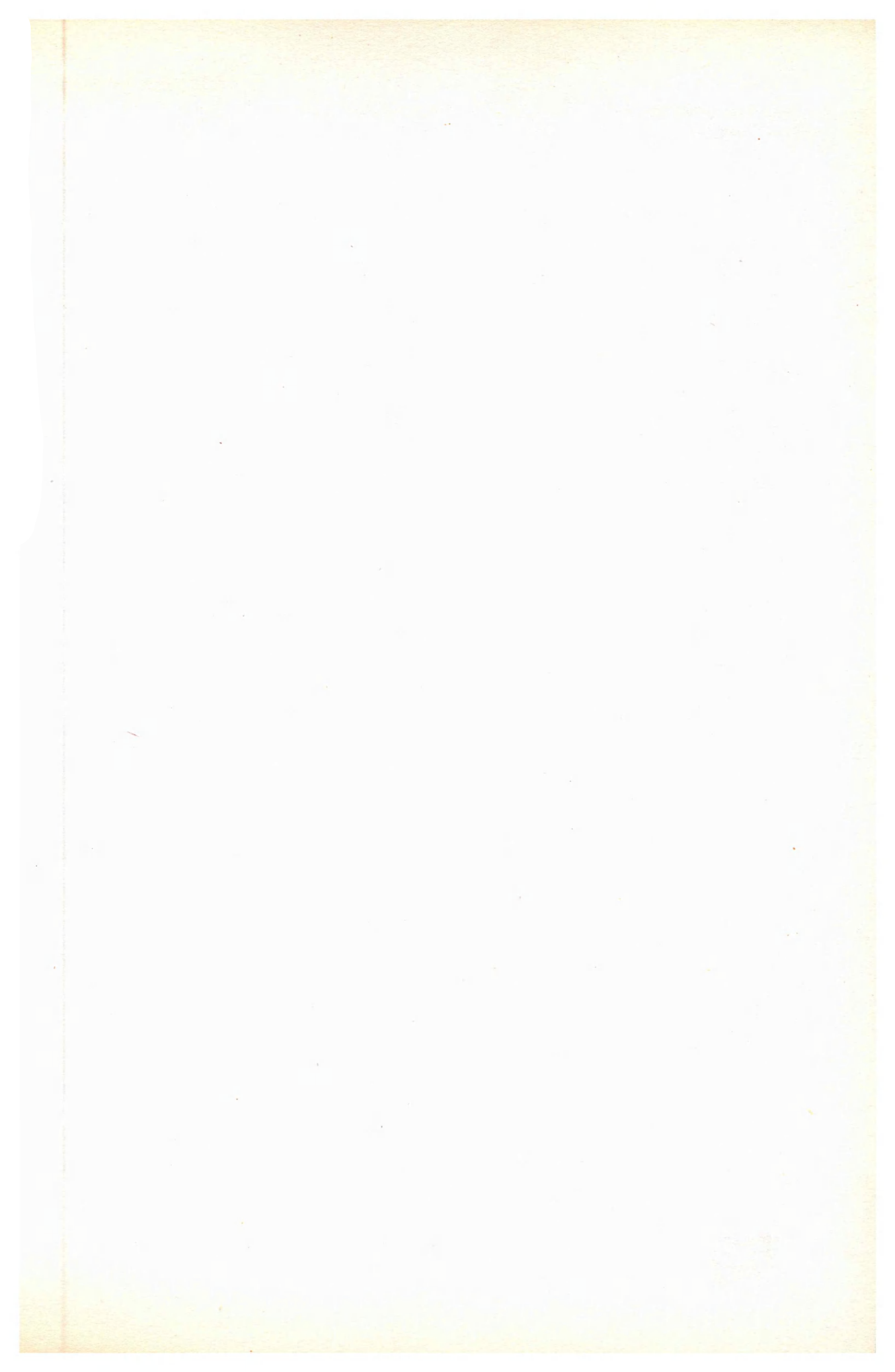
---

(١) الرسالة تحقيق الأستاذ أحمد شاكر (٣٥٧ - ٣٦٠) مكتبة التراث.

الإسلام، وتحريم القتل، والزنا، والسرقة، والخمر،... هي من علوم العامة، وذلك لظهورها وإمكان العلم بها، وكونها محفوظة، وموجودة عامة عند أهل الإسلام وهذا العلم هو الذي لا يمكن الغلط فيه ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع وهذا العلم من المحكمات الأساسيات التي اتصفت كما سلف بكونها محفوظة وعاصمة للمسلمين من الزيغ، وجامعة لهم علىٰ تحقيق مقاصد الشريعة .

وأما تفاصيل العلم بالجزئيات المتعلقة بفروع الفرائض التي لم يرد فيها نص صريح ولم ينعقد عليها إجماع فهي - كما بيَّن الشافعي رحمه الله من علوم الخاصة ويدخل في ذلك سائر الفنون والعلوم التي يحتاج إليها المجتمع، فإن علومهم تدخل في فروض الكفايات.





١٣ أثر المحكمات في الأمة وتوجيهها للعامة والخاصة

إن المحكمات الأساسيات هي علم العامة وهي الموجهة لمقاصد العلوم عند الخاصة.

فأما أثرها على العامة فمن حيث إنها ثوابت في العقيدة والشريعة توجه حياتهم في شمولية ويسر.

وأما أثرها على الخاصة أي العلماء والمفكرين والباحثين في جميع التخصصات، وكذلك القادة والأعيان فمن ناحيتين العلم والعمل لأن المحكمات هي الثوابت التي يجب أن تؤثر في سلوك أولئك الأفراد بمختلف مراتبهم، وهي التي توجه فكرهم، وتؤسس معتقدهم.

وهؤلاء جميعاً لهم الأثر الواضح في توجيه المجتمع والارتباط بينهم وثيق كما دل على ذلك نصوص في الكتاب والسنة حيث أمر الله المؤمنين جميعاً أن يدخلوا في السلم كافة والسلم هو الإسلام قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقد جعل الشارع المحكمات أساس الدين، وألزم العلماء والمفكرين والباحثين في جميع تخصصاتهم بها وحذرهم أن



يخالفوها ويتبعوا خطوات الشيطان، وإذا كانت هذه القاعدة الراسخة قاعدة أساسية في الشريعة المباركة فإن الحث علىٰ الاجتهاد في العلوم المادية - المنضبط بهذه القاعدة - في جميع أنواع التخصصات التي يحتاجها المسلمون هو مجال الإبداع والانطلاق إلىٰ جميع آفاق العلوم النافعة لبناء الحضارة الإسلامية.

كما أن الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية للمستجدات والحوادث هو مجال علماء الشريعة.

ولهذا فإن المحكمات عندنا أهل الإسلام التي توجه الفكر والعلم - في مجال إبداعه البشري - ربانية المصدر شرعها الله سبحانه لحفظ الفرد والمجتمع في عقيدته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وتوجه جميع طاقاته التي أنعم الله بها عليه، والموجه لمجال الاجتهاد والإبداع - عند الأمم الأخرىٰ تصورات بشرية، شرعها البشر أنفسهم ؛ ولذلك اتجهوا بالبشرية إلىٰ الإباحية والشرك، والخرافة والضياع والشقاء، والمجتمعات الغربية - علىٰ سبيل المثال - تشكو من ذلك كله[1] ولا مخرج لها إلا باتباع

(١) انظر شكوىٰ الدكتور الكسس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» ص١١٧، تعريب شفيق أسعد مكتبة بيروت الطبعة الثالثة. أما الدليل علىٰ توجيه العلوم إلىٰ الإباحية فهو نشر الفكر الغربي نظريات فرويد ودور كايم وغيرهما وأما علوم التشريع والقانون فقد اتجهت فيما يخص الحريات إلىٰ نشر الحرية الجنسية انظر كتابنا حكم الزنا في القانون وصلته بمبادئ حقوق الإنسان في الغرب.

ما شرعه الله سبحانه وأمر عباده بالعمل به والاستقامة عليه.

إن الحقيقة الساطعة - التي لا يكون الإنسان مسلماً مؤمناً إلا بالتزامها والحرص عليها هي أن المحكمات هي أم الكتاب أي أصله وأكثره ولهذا سمَّىٰ الرسول ﷺ «الفاتحة» أم القرآن وإنما كانت كذلك لأنها تضمنت الإشارة المعجزة لما ورد في القرآن، ففيها ذكر التوحيد بأنواعه، واليوم الآخر، والأمر بالعبادة، وبيان كونها الصراط المستقيم.

ثم إن فيها توجيه للطاقة البشرية إلىٰ الطريق المستقيم ومتابعة أهله الذين أنعم الله عليهم.

وقد قسمت هذه السورة الناس إلى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول: أهل الهداية وهم الذين جمعوا بين العلم والعمل سواءً من عامة المسلمين أو من خاصتهم وكلهم يسأل الله في كل يوم سبع عشرة مرة يقول: « ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ » ويحدد وجهته في تحقيق العبادة الصحيحة، كما يحدد وجهته في صرف طاقاته العلمية والمادية لنصرة دينه. وتحقيق مقاصده، وهؤلاء امتدحهم الله عز وجل وجعلهم ممن أنعم عليهم، بسبب لزومهم للمحكمات، وهذا هو الصنف الأول وهم الفرقة المهتدية.

أمـا الصنـف الثاني : فهـم من كان معـه علم وليـس معه عمل وفيهم علماء ومفكرون وباحثـون ومتخصصون في جميع العلوم يوجهـون علومهم وجهـة غير صحيحة ويجعلونهـا في صراع مع الدين، وتعطيلاً لمقاصده.

أما الصنف الثالـث :فهم من كان معه عمل غير صحيح وليس معه علم صحيح ومنهم عباد يتعبدون لربهم علىٰ غير هدىٰ وعلم ولهـم أئمة ضلال يقودونهـم علىٰ غير بصيرة، شـعارهم الجهل، فضلوا وأضلوا وتقطعوا في أودية الشـرك وفي شـعاب البدع جزاء تركهم للعلم الصحيح[1].

ومن هنـا نبيـن أن مكونـات المجتمـع بطبيعته يمثلهـا العامة وكذلـك العلماء و المفكرون والمثقفون والمشـاركون في جميع التخصصات - والقادة و الأعيان... وهؤلاء جميعـًا

بمقتضـىٰ الإسـلام يجـب أن يعملـوا بمقتضـىٰ هـذه الآيات الكريمـة، ويدعـوا الأمـة للعمل بالمحكمـات التي هي أسـاس لحفظ المجتمع.

وأمـا إذا تفرقت الأمة عـن المحكمات واتبعـت طوائف منها الأهـواء والمذاهب الأرضيـة، فإن المجتمعـات يصيبها الخلل،

(١) انظر الاعتصام، وقد بين كيف دخلت الأمم الأخرىٰ في التحليل والتحريم مخالفين للشريعة ومعطلين مقاصدها إما عناداً أو جهلاً (١/ ٦٦-٧١، ٨٩، ٣٦٩، ٤٢٤).

ويصدِّق هذا ما نلمسه في واقع هذه الأمة من تفرق كثير من أهل الأهواء عن تلك المحكمات وهؤلاء يلبسون على العامة أمر دينهم، ويوقعونهم في الفتنة التي لا يقع فيها إلا من زاغ عن المحكمات

وأشد ما يكون ضرر الانحراف على العامة والخاصة إذا تلبس الانحراف بـ(العلم) و(الفكر) ولنضرب لذلك أمثلة ونسأل أنفسنا:

١- من الذي وجه أنظار كثير من العامة إلى الخرافة والشرك و الرهبانية وصرف العبادة لغير الله، إنهم أهل الأهواء المفتونون، الذين أباحوا الشرك الأكبر والخرافة باسم التقرب إلى الله عن طريق عبادة الصالحين وهذا هدم للمحكم الأول الذي هو التوحيد.

٢- ومنهم من عزل الدين ومقاصده عن الحكم والسياسة والفكر والإبداع... واستبطن العَلْمَانية منهجاً وغاية اغتراراً بفتنة الدنيا وشهواتها وهم اليوم ينشرون الإباحية في العالم عن طريق القنوات الفضائية وعن طريق التشريع ممّا سمّوه «القوانين الوضعية» حيث أجمعت القوانين في العالم الغربي على إباحة الزنا عند التراضي وتبعها على ذلك أكثر القوانين في العالم

العربي[1] وعـن طريق ما سـموه مبادئ حقوق الإنسـان ومحاولة غـزو جميع بقاع العالم بنشـر المبدأ الرئيس «الحرية الشـخصية» ومعهـا «الحرية الجنسـية» وذلـك لتعميم الإباحيـة عالميا و هذه العولمـة من خصائص الجاهلية الغربية دون الجاهليات السـابقة في التاريخ[2] وهم يدعون هذه الأيـام إلىٰ «عَوْلَمة» الثقافة ووحدة الأديان وكل ذلك يبغون مـن ورائه إزالة تلك المحكمات وإبعاد الأمة عنها[3]..

وهكذا وقـع الخلل في بنـاء الأمة الإسـلامية المعاصرة، ذلك أن عـزل المحكمات دخـل بالتدريـج علىٰ مكونـات المجتمع، وانخـدع بذلـك كثير من الخلـق حتىٰ طمع فينا الأعـداء وأخذوا يطـوّرون فكرهـم واتجاهاتهـم وخططهم ضد عقيدتنا وشـريعتنا وأمتنا، ويطعنون في أحكام الإسلام.

ولا ريب أن طلاب العلـم والعلماء والمفكرون والباحثون في

---

(١) لا يزال دعاة الإباحية والعلمانيون يطعنون في أحكام التشريع الجنائي الإسلامي باسم المحافظة علىٰ حقوق الإنسان. انظر الرد عليهم مفصلاً في كتابنا حكم الزنا في القانون وصلته بمبادئ حقوق الإنسان في الغرب.

(٢) انظر المرجع السابق (ص ١٢٢ - ١٢٥).

(٣) انظر فتوىٰ اللجنة الدائمة التابعة لهيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية والتي صدرت برقم (١٩٤٠٢) في ٢٥ / ١ / ١٤١٨هـ مجلة البيان العدد ١٢٠ عام، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م

جميع التخصصات والأطباء والصحفيون والأدباء وكذلك عامة المسلمين، يجب عليهم المشاركة كل بحسب طاقته في الإصلاح والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعم جهاد الكلمة والعمل، ولم يخص الله طائفة من أهل العلم الشرعي بهذه التكاليف دون غيرهم، وأن كل من أبلىٰ بلاءً حسناً في نصر تلك المحكمات علماً وعملاً من خلال تخصصه ولاحظ مقاصدها في إنتاجه العلمي والعملي فإنه يكون حينئذ مشاركاً في إصلاح مجتمعه وحمايته متميزاً عمن انزوىٰ بعيداً عن المشاركة في مجال الإصلاح والدعوة والتعليم والتربية.

ومن خلال هذا العرض العملي الواقعي - تظهر بجلاء خاصية الشمول واليسر في تلك المحكمات كما يظهر أثرها الطيب علىٰ المجتمع والفرد.

وأما المقاصد العليا لتطبيق الشريعة الإسلامية فهي ثمرة للعمل بتلك المحكمات.

فالعامة يعملون بها، والعلماء يحافظون عليها كل في مجاله ويربون الناس من خلالها، والقادة يَحْكُمون بها في جميع مجالات الحياة، وهكذا يجب أن يكون المسلمون في الأرض كلها أمة واحدة [وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ] [المؤمنون:



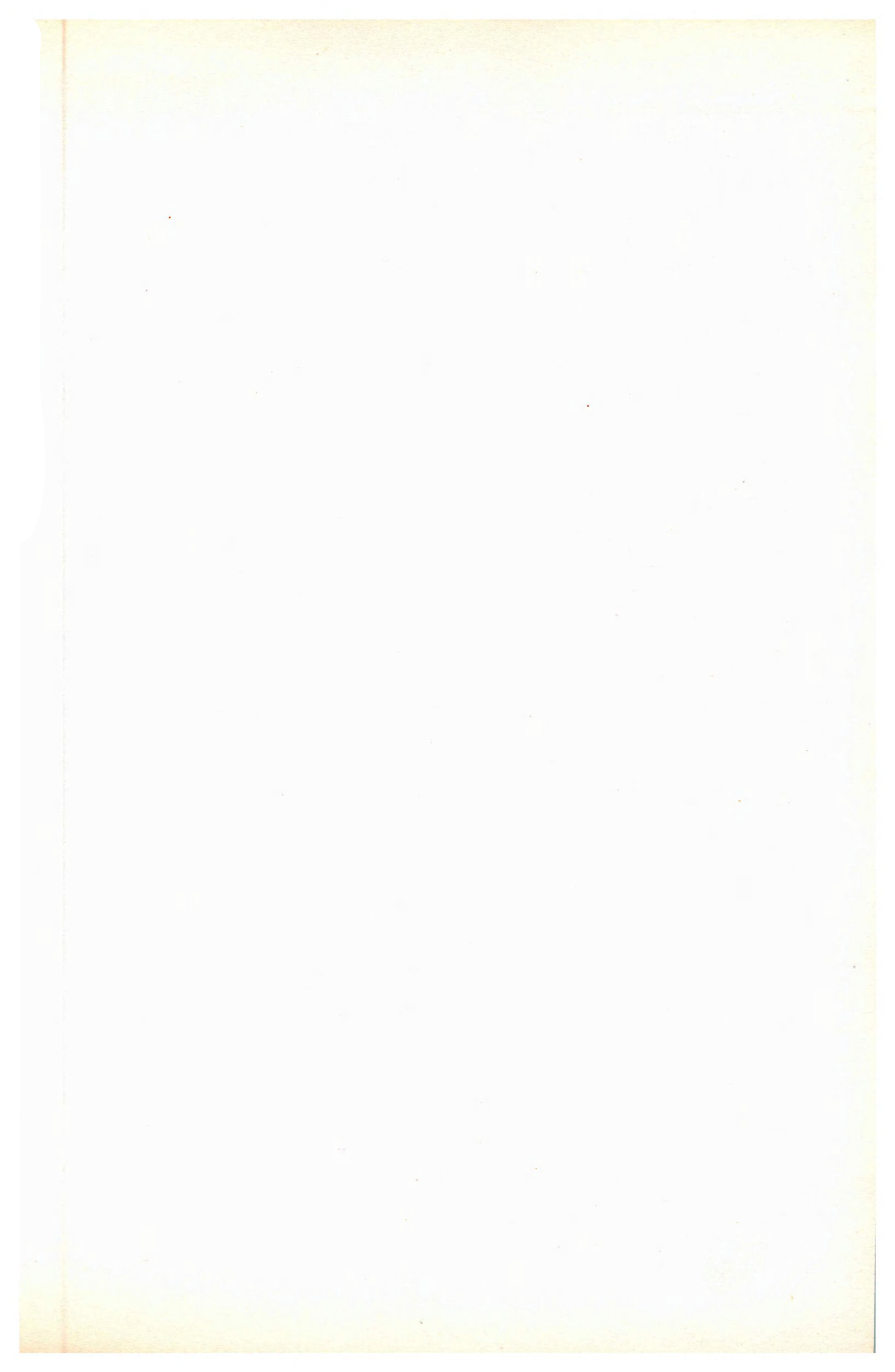
٥٢] ولهذا سمىٰ الله دينه الحنيفية السمحة، ولكن لا يدرك بركته ويسره وسهولته وخيره ونفعه إلا الصادقون من عباده﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

وعلىٰ هذه الصفات تجتمع كلمة الأمة وتتوحد، وعلىٰ هذا تصلح التربية ويصح التوجيه، وهكذا نشأ المجتمع الإسلامي الأول والأمة تنظر إلىٰ قادتها ومفكريها وعلمائها وأدبائها... وهم يوجهونها إلىٰ صورة واحدة لا التباس فيها، إنهم جميعًا يحافظون علىٰ المحكمات ويحققون في مجتمعاتهم مقاصد الشريعة من خلال طاقاتهم العلمية والعملية، ففازوا بالسعادة في الدنيا والآخرة، ولهذا أمرنا الله أن نكون علىٰ طريقهم، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وإن مما يميز نشأة المجتمع الإسلامي الأول أن الأسس المكونة لنظام الدولة الإسلامية كانت مستقلة عن التأثيرات الجاهلية التي كانت سائدة في العالم، وكانت حاكمية الشريعة ومرجعيتها للدستور والأنظمة والسلطات هي أساس الحكم في المجتمع، وكانت أصول التشريع في النظام الإسلامي هي

الأساس لتحقيق مقاصد الشريعة وموجهة وضابطة للمستجدات والمتغيرات، وبهذا استقلت السلطة التشريعية و السلطة القضائية بمهامهما في توجيه الفرد والمجتمع والدولة ونظامها، وكان ذلك كله بسبب اعتصام الأمة بمحكمات الشريعة ووحدة كلمتها علىٰ ذلك.

نسأل الله أن يجمع كلمة المسلمين علىٰ ذلك وأن ينصر دينه ويعلي كلمته إنه علىٰ ذلك قدير ولما يشاء لطيف.



١٤ خاتمة في نتائج البحث

بعد دراسة موضوع « في الشريعة الإسلامية « يمكن لنا أن نصل إلي هذه النتائج التالية وهي :

١. أن تعريف «المحكمات» الجامع لخصائصها هو « ما كانت أصلاً بنفسها مستغنيةً عن غيرها لا تحتاج إلىٰ بيان ».

٢. أن خصائص المحكمات هي كونها محفوظة وبينات، وأصولاً وأسساً تعصم المكلف، ومرجعاً يرجع إليها عند الاشتباه، وحجة علىٰ المخالفين.

٣. أن «المحكمات» هي معظم الشريعة وتحيط بالفرد والمجتمع من جميع جوانبه، وبالعمل بها وتطبيقها يحفظ المجتمع، وتتحقق فيه مقاصد الشريعة.

٤. أن «المحكمات» هي علم العامة وموجهات العلوم عند الخاصة. فالواجب علىٰ المجتمع العلم والعمل بها لتحقيق مقاصد الشريعة في المجتمع.

٥. أن «المحكمات» هي الأصل والأساس لوحدة الأمة،



وهـي العاصم مـن الاختـلاف والفرقـة، فالواجـب علىٰ الدعاة والمصلحيـن و المربين أن يجعلوها قاعدة للدعوة والتربية.

٦. أن «المحكمات» هي الأساس لنصرة الحق ودفع الباطل، والاحتجـاج علـىٰ الخصـوم، ورفـع الاشـتباه الـذي يَرِدْ علـىٰ المكلفين، وهي منطلق للدعوة الإسـلامية في العالم وأساس الحوار في القرآن والسنة.

٧. الواجب علـىٰ المصلحين التعاون علىٰ نشـر المحكمات والحذر من جميع « الأسـاليب « التـي تخالفها، أو تدخل اللبـس علىٰ العامة، لأن ذلك مؤد إلىٰ لبس الحق بالباطل، وفتنـة الناس عن الحـق، وذلك منـاف لمقاصد الشـريعة الإسـلامية في حفظ المجتمع وفي تحقيق وحدة الأمة، كما هو مناف لبلوغ الدعوة الإسلامية للعالم بيضاء نقية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وعلىٰ آله وصحابته أجمعين.

This Book

Muslims nowadays face many problems because of the large number of disputes in areas of values, ideas tenets and judgments. People have separated on these basis influences by sects in the past and the ideas of enlightenment and secularists and rationalists in the present. And both of them were influenced by the other's ideas namely the West, rejected the facts in the fields of tenets, provisions. They followed secularists, communist and existential ideologies and applying them in the Muslim World. They have even tried every ideology. This is how the dispute and conflict started about the maicn foundations and impermeable and fixes facts of Islam. Great number of Muslims were affected as the basic foundations and impermeable of Islam subject to disputes and argumentation. This is evident in the age of the revolutions. Radicalism and fanaticism became widespread and great number of problems sprang from these differences and sectarianism were the cause of great number of problems. The personal passions and argumentations and unwanted disputes became wide spread and people became like enemies. This book treats this conflict and defines the foundations and permeable basis which Muslims can agree upon which prevent the doubtful or uncertain things which many a Muslim has fallen and kept them away from the Islamic Jurisprudence. This book answers this question: which are these foundations which are agreed upon enough in dealing with the problem of forming the one Muslim nation that follows one Jurisprudence and abide by the pure tenets



of Islam and presents the Islamic message to the whole world which are agreed upon in all previous messages which Islam came to renew. Or are we going to face the differences of opinion and passion that would be an obstacle in this way.

This book which is titled "Preambles" offers the answer and states that these secure and stable rules are the foundations and fixed truths of the Islamic Jurisprudence and enough to build the nation and its society and is suitable as a foundation for reform in the whole world, and it is the ideal way to introduce Islam.

This research includes the definition of permeable (المحكمات) and its legal origin and the legal applications and explanation of the concept and redaction of learned scholars views in different fields. It also includes induction of history and presenting what the previous messages which ascertain this methodology. I t also elucidates what the Prophet Muhammad (peace be with him) called for and renewed and discussed with the rest of humanity. We have chosen some of the debates of his companions (Allah be pleased with) with other nations. Finally we included in this research a study about the influence of permeable facts in securing the unity of the nation and in preserving the society in a concise style suitable to the general reader by giving numerous examples of the applications and stories and historical dialogues whether from Prophets biographies or from the early days of Islamic Da'awa to uncover the effects of the permeable facts in education and introducing Islam.